محمد سامي البوهي
الأسماك
تضيء أيضاً
رواية
واقعية

الأسماك تضيء أيضًا

الكتاب : الأسماك تضئ أيضا

المؤلف : محمد سامي البوهي

تصميم الغلاف : عمرو الحو

تدقيق لغوي : سارة صلاح

رقم الإيداع : 2014/19601

الترقيم الدولي : 978-977-6436-90-9

الطبعة الأولى : 2015



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

الأسماك تضيء أيضًا

رواية واقعية

محمد سامي البوهي



إهداء

إلى امرأة اشتريتُ منها سمكًا مضيئًا بثمن بخس وهي قانعة.

إهداء ثانٍ

إلى "نون".. ماءً، وسمكًا، ودارًا..

هنا اسمك الذي

لا يكفّ عن تكراره المطر.

وهنا وجهك الذي يحبّني،

الوجه الذي

كبحرٍ يحوي

وأنا دمعة.

وتلك يدي

يدي التي لن تعود أبدًا إليّ،

وكأنّها لم تكن يومًا

سوزان عليوان

" مازالوا لا يعلمون بأن الأمل لا يغيِّر النهايات المحتومة، فإما اللاموت في الماء، أو اللاحياة على الأرض".

الكاتب..

القســـم الأول

"طقوس النور"

(١)

"رمال حمراء ومطر"

مازلت أبحث عن طائر يغرد في مكانٍ ما..

لم تكن تغريداته نذير خير أو شؤم أو أي شيء مما ابتدعته العرافات، بل كانت تغريداته تدغدغ قلبي برفق فتلقي عليه من الشجن ما يكفيني أن أقضي ليلتي الأولى هنا، وقد اهترأت مقلتاي بالدموع، فقبعت في غرفتي حزينًا وليس عندي شجاعة بأن أصارح نفسي بهذا الحزن الذي خيَّل لي وسادتي المبللة وكأنها إناء امتلأ عن آخره بـ"العَرَق الشتوي"، مصطلح ابتكرته كي أبدأ يومي بابتسامة، وأنفض عن روحي رغبة جامحة في كأس نبيذ أبيض، مع قطعة من اللحم البارد، وبعض الفستق المملح، ودفء امرأة، فشغلت نفسي بالضوء المتسلل من النافذة الزجاجية التي تزاحم الجدار يمينًا ويسارًا، ودبيب «نور» في الخارج بعدما طلب مني أن أجهز الفطار، وأضعه على الشاطيء أمام الباب الخلفي للفنار، وأحضِر الراديو "الترانزستور"، وبعض أوراق الجرائد القديمة التي أتى بها معه منذ أربعة أشهر، فلم أكن أبدي اهتمامًا بأفعاله الغريبة التي دفعته إلى ارتداء ملابس صيفية في شهر يناير، دون أن يمرض أو تصدر عنه ارتعاشة واحدة سببتها البرودة الحمقاء التي تحتضن هذا المكان الموحش

الذي سقط خلسة وسط مياه البحر. فالرجل الذي سيتم عامه الستين خلال أيام قليلة يستمتع بكل شيء هنا على طريقته الخاصة، فطبَعَ المكان على ملامحه سريالية فريدة تشبه رأس هذا الفنار الذي يبزغ من بعيد كأنه خنجر غُرِسَ في قلب غزال بري، فوجهه الأسمر البسيط، ونظارته الطبية المستطيلة التي تخفي وراءها عينتين زرقاوين، وجسده الممتلىء قليلًا، مع قامته الطويلة الممشوقة، تعكس أن بداخل هذا الرجل حكايات كثيرة لا يمكن فهمها إلا على سطح تلك الجزيرة الحمراء.

خلصت جسدي من الغطاء الرمادي الثقيل الذي تلذذ بغرس مخالبه بين مسام جلدي طوال الليل، وأسندت ظهري للسرير، وقررت أن أقاوم الضوء المتسلل من النافذة الزجاجية، حتى ضاقت حدقتاي لاستيعاب سطوته التي يفرضها على جنبات الغرفة الضيقة، وكأن أحدهم جاء ليدسه ببطءٍ شديد في شراييني ليطهرها من عتمة الروح اللعينة التي تسكنني، لكنني كنت ما زلت أعاني من آلام في رأسي تلفه كطوق من حديد ملتهب، فتطاير الكحول، وانحصار دماء "كاميليا" من بين خلاياي الميتة، يشق جسدي كله إلى نصفين، نصف يحمل خيرًا، ونصف آخر يحمل ألم الفراق، ففراق الأشياء المعتادة لا يقل تأثيرًا عن فراق الأعزاء الذين نرغب في وجودهم الدائم داخل حياتنا، فجاهدت عظامي المتكسرة، ونهضت من فراشي، وظللت أدور في مكاني مترنحًا يمينًا، فيسارًا، حتى استقرت يدي على الجدار، الذي داهمَتْه الشمس، فوقعت عيني على الساعة المستديرة المرسومة بعمود من الفحم في منتصف بقعة الضوء التي يحدها إطار من الظل خلفته النافذة الزجاجية المقابلة، حيث كانت عقاربها تشير إلى السابعة، فالتقطت ساعة يدي من على الطاولة،

وحدقت فيها بصعوبة، حتى أيقنت أن عقاربها تشير هي الأخرى إلى السابعة صباحًا، فابتسمت، بل اندهشت، ثم ابتسمت لهذا الميقاتي الذي رُسم بعناية فائقة، وكأن فرعون قديم هو من فعل ذلك لتسقط أشعة الشمس على وجهه عند اللحظة الحاسمة للاستيقاظ صباحًا، فتجولت بناظريّ بين الأرقام العشوائية المتناثرة على الجدران، والمشطوبة بشرطة مائلة لتدل على أنها تتعلق بحساب زمن معين قد انتهى، فانتصب جسدي كاملًا وعاد إليّ توازني، بعد أن تلاشت بقع الضوء الزرقاء من أمام عينيّ، وأصبحت زاوية الرؤية بالنسبة إليّ طبيعية، ومتسقة مع النور الذي غمر نصف الغرفة الأمامي، فتساءلتُ حينما وقعت عيني على الطاولة التي تحمل طبقًا يحوي بقايا من الخبز المتعفن، وولاعة سجائر، وشمعة ميتة أوشكت على الانتهاء، هل سيأتي يوم هنا أترك فيه لمن سيأتي بعدي بعض آثاري كي يمحوها هو بيديه ليقيم حياته الجديدة على أنقاضها؟! لكن سرعان ما انتبهت إلى صوت «نور» يأتيني من الخارج يُذكرني بأن الساعة قد تخطت السابعة صباحًا، وأن وقت الظهيرة قد شارف على الاقتراب ولم نتناول فطورنا بَعد.

لم تكن المؤونة من الماء والطعام تكفي لشخصين فأنا لم يُعمَل حسابي بَعد، ولم يرد ذِكري كموظف جديد يجب أن يحيا في المكان، لذلك تجاهلوا طعامي وشرابي عندما ألقاني زورق سريع تابع لـ"هيئة الموانئ" انحرف عن أداء مهمته الأساسية في البحر ليؤدي مهمة استثنائية لإلحاقي بهذا الرجل الذي سأتلقى على يده التدريب اللازم لأكون واحدًا من طاقم إدارة الفنار قبل تركه الخدمة، لكنه استطاع أن يتجاوز الأزمة بكل أريحية بعد أن أجبره وجودي على أن أتقاسم معه اللقمة، فكل شيء

هنا محسوب بدقة متناهية، من براميل سولار، وزيت لتشغيل الماكينات، ومصابيح، وعدسات، وقطع غيار احتياطية تغطي المدة التي تسبق عودة باخرة التموين"عايدة٤" (١).

وقف الرجل يتأملني من شباك أسطواني صغير في غرفته، فتظاهرت بانشغالي برصّ الأطباق على الطاولة الخشبية، فهو يعتبرني سارق الذكريات الذي سيسلبه سنواته الطويلة التي قضاها بين سطوة الماء والنور والصمت، ففرحة النور لا تعادلها فرحة، لكن إذا اختفى فلا معنى لنا في هذا المكان، أما الماء العذب، فهو السيد المدلل، والوحش الكامن الذي يرغمك أن تعامله بحرص شديد وإلا قتلك باختفائه، بينما يعتبر الصمت هو الغواية الكبرى التي تلهمك الإنسانية، وتشعرك بأنك موجود لأنك مهما تحدثت أو صرخت أو بكيت فلن تجد من يرد إليك صراخك، فلا صوت إلا لهدير الماكينات، وتلاطم الأمواج، ونباح بحّار، ودبيب "نور"، وطائر يغرد من حين لآخر دون أن نراه.

اقترب مني بخطواته الحثيثة ثم ربت على كتفي وجلس أمامي، سألني عن (الماكينة رقم٢) وهل نفّذت تعليماته بتزويدها بالماء والزيت والسولار لتكون جاهزة للعمل ليلًا؟، فأخبرته بأن كل شيء على ما يرام، فرفع رأسه عاليًا وألقى نظرة على رأس الفنار ثم عاد يسألني عن نظافة العدسات، فأجبته بأنني قمت بتلميعها جيدًا.

---

(١)باخرة تقوم بتنفيذ مهمة وطنية رئيسية وهي القيام بأعمال تموين الفنارات المنعزلة في خليج السويس والبحر الأحمر ومتابعة جميع المساعدات الملاحية لسواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر.

فأمسك برغيف خبز ثم نزع منه مزقة صغيرة وغمسها في طبق الفول، متفحصًا وجهي بنظرات شاردة. لم يكن«نور» شخصية يمكن فهمها بسهولة فحياته التي قضاها هنا أضفت عليه غموضًا يثير تساؤلات مجنونة في رأس كل من يراه، فهو لا يتكلم تقريبًا، لكنه إذا تكلم لا يصمت لكنك لا تمل من حديثه لأن كل ما يقوله يُبهر العقل والوجدان. فتجاربه التي مر بها متنقلًا بين الفنارات، التي ارتبطت بأحداث تاريخية، ووقائع ربما لا يعلم عنها أحد شيئًا، وأبطال وأساطير جعلت كل ما ينطق به حكاية طويلة مشوقة، تتخللها حكايات صغيرة من هنا، وهنا، وهناك، لكنه لا يتطرق أبدًا إلى حكايته هو، فلم يذكر نفسه قط كبطل، أو رجل خارق استطاع أن يقهر كل الصعوبات الجاثمة في مثل تلك الأماكن التي سقطت من بين أصابع العالم الكبير الضخم الذي يرقص حولنا، فهنا قواعد وسياسات وأطر لا تشبه الثرثرات التي باتت تتحكم في مصائر البشر، والشعوب؛ فالطبيعة وحدها من تقرر مصيرك، وعليك أن تطيع أو تقاوم، أو تهرب من قضائها.

وقف«نور» على حافة صخرة ضخمة وبجواره كلبه بحّار، يلقي نظرة طويلة على خط النهاية التي يرسمها الماء، أمسك بطرف الخيط، وألقاه في البحر، وجلس ينتظر، ثم قطع الصمت بصوته الجهوري، وكلفني بأن أجمع بعض الأخشاب ليضرم فيها النار، لكن لا يمكن أبدًا أن تتصور مدى صعوبة تلك المهمة إلا إذا فرضت عليك الظروف نفسها، لتجمع الحطب من مكان أشبه بصحراء قاحلة، فكتلة الرمال تلك والماء المالح هما أقسى بالفعل من صحراء قاحلة، فكلما عثرت على قطعة خشب كنت أصيح بأعلى صوتي معبرًا عن سعادة لا يمكن أن أصنعها لنفسي

بين صخب المدينة، فالسعادة الحقيقية هي تلك التي تخرج من بين أشياء قد نحسبها بسيطة، أو تافهة ثم إذا قررنا أن نحصل عليها فقدناها، وإذا وقعت بين أيدينا حملتنا الفرحة إلى أعلى ولا تهبط بنا أبدًا.

صاح«نور» اللهم صل على النبي.. اللهم صلّ على النبي" فقد علقت سمكة ضخمة في طرف خيطه، خرج بها إلى قلب الشاطىء وخلفه كلبه الذي كان يهز ذيله مباركًا فرح صديقه، وأشعل النار في كومة الخشب وهو يردد "الرزق من الرزاق.. واهب النعم"، نظر إليّ بابتسامة أحسبها الأولى منذ أن قدمت إلى هنا، وكأنه يُطمئنني على قوت يومي، أو يعطيني درسًا في الإيمان بالله، والقدر، والملائكة، لكنني عدت أسأل نفسي، وهل فعل هذا الرجل شيئًا خارقًا؟ فقد اصطاد سمكة..مجرد سمكة لا أكثر ولا أقل، فعدت وسلمت بعِظَم الحدث لأنها سمكة واحدة تكفي لإشباع شخصين، لكنني تذكرت أن المهمة التي كلفني بها هي أصعب بكثير مما قام به، وأخذت أضمر في نفسي الساذجة بعض الحنق تجاهه، لأنه لم يشكرني أبدًا على أي عملٍ قمت به منذ أن أتيت إلى هنا، التفت إليّ والدموع تملأ عينيه من أثر الدخان المتصاعد قائلًا:

-كلما جمعت حطبًا أكثر سيعطيك الله سمكًا أكبر.

اندهشت لتلك المقولة التي جعلت منّي صاحب الفضل العظيم في إعداد تلك الوليمة التي انتظرتها بشغف، لكنني لم ألتفت إلى المنطق الغريب الذي احتوته، فالانتشاء بالذات يطغى على أي معنى آخر قد تحتويه حكمة عابرة، لذلك لم أعبأ بما يقوله الرجل، وأخذت أتابع السمكة المسكينة التي نشرها على شواية حديدية، وأخذ يدور بها في حلقات متتابعة، فوق ألسنة النار، حتى تبدَّل لونها الفضي اللامع، إلى لون أسود

قاتم، فتعجبت لتلك المشاهد التي تقفز أمام عيني لأراها للمرة الأولى كما لو كنت لم أرَها أبدًا من قبل، فرغم تكرار هذا المشهد أمامي آلاف المرات في كوخنا إلا أنني لم يسبق لي وأن انتبهت لتلك التحولات التي تطرأ على الأشياء بدقة متناهية، فـ«نور» يقوم بعمله، كما قام به من ابتدعه من الأساس، وكأن الله يلهمه تعلُّم الأسماء كلها، ويمنحه الحكمة، ولغة الماء التي تسود الأرض.

اختار«نور» النصف الذي يحتوي الرأس، وأعطاني النصف الآخر، وجلس يحكي قصة "موسى والخضر". يتوقف لحظات ويرفع رأسه ناحية البحر، ويلقي بقايا طعامه لكلبه، وهو يلوح لي بأن "موسى" قد أصرَّ ألا يبرح مجمع البحرين حتى ولو ظل منتظرًا عمره كله حتى يلتقي "الخِضر" ليصاحبه في رحلة طويلة ليتعلم منه ما لم يحط به علمًا، ثم يعود ويكمل الحكاية مشيرًا إلى فتى "موسى" "يوشع بن (٢)نون" الذي نسى قصة "السمكة المشوية" التي احتفظ بها "موسى لتكون طعامًا لهما بعدما رآها بأم عينه وهي تَسرَب إلى الماء بعد أن عادت لها الروح بأمر الله، حينما كان "موسى" نائمًا فوق الصخرة التي من المفترض أن يلتقى عليها صاحبه المنتظر، ثم يؤكد«نور» عليَّ بأن الشيطان هو من أنسى "بن نون" قصة السمكة حتى لا يلقها على "موسى" ليفقد العلامة التي حددها له الله للقاء "الخِضر"، وذلك ليزيد من جهده للحصول على العلم.

---

(٢) نون: في اللغة الهيروغليفية هو إله الماء والمحيطات والبحار التي سبقت خلق الكون، وأن هناك إلهة أخرى اسمها نونت. وكذلك كلمة نون معناها الأسماك أو الحيتان في اللغة العبرية القديمة.

ورغم أنني سمعت تلك القصة مرات ومرات، حتى سئمت من سماعها من خطيب المسجد في جزيرتنا عندما يستلذ بنعتنا بالجهل، إلا أن الأجواء من حولي وصوت «نور»المتداخل مع صوت الهواء والموج، جعلني أنصت لسماعها كأنني لم أسمعها أبدًا من قبل، فقد كان "الخِضر" أكثر عِلمًا وصبرًا من موسى النبي، الذي ظل يسأل ويسأل مخالفًا وعده حتى كان الفراق بينهما، لكن موسى النبي تصدَّر الصورة حتى النهاية، أما "الخضر" فقد اختفى، وتلاشى.

لم أكن أتخيل أن يتحول هذا الفنار إلى مئذنة، ويُطلّب مني أن أؤذن وأرفع الصلوات، حتى وإن كنت وحيدًا لا ثانٍ لي من البشر، فأنا خليفة الله على تلك البقعة الصغيرة من الأرض المنبثقة من الماء، هكذا أخبرني«نور» وحملني الأمانة التي ما كنت أظن يومًا أن أحمل مثلها أبدًا، لكن إذعاني التام لكل أوامره وتعليماته وتوجيهاته، كان يجبرني أن أقبل منه أي شيء؛ لأنني أتيت إلى هنا كي أقبل كل شيء، فجعل مني مؤذنًا، وإمامًا، وعابدًا، وصيادًا، وحطابًا، وطباخًا، وعاملًا يدير ماكينات الفنار الذي تهتدي به السفن البعيدة، وكأنها بلدان ضالة تمر وتلوح لنا وتنادي علينا بأسمائنا وتشكرنا، ثم ترحل لتأتي بلدان أخرى تلوح لنا ثم تشكرنا وترحل وتأتي أخرى، وأخرى، وأخرى، ونحن هنا كما نحن سخرنا الله كي نضيء ظلمة البحر، وعتمة الماضي، وطرق المستقبل، كم هو رائع هذا الشعور الذي يتخمك بالحياة بأفعال بسيطة يقدرها الآخرون في صمت!.

جاهدت نفسي كثيرًا كي أنسى حياتي كلها بعدما عدت من رحلتي الطويلة التي أردت أن أتمرد بها على عالمي المحصور بين الطريق والملح والماء، فعشت شهورًا متمارضًا طريح الفراش، غارقًا في شرب "الشامبانيا"،

و"الويسكي"، و كل خمور الأرض، كي أهرب من نفسي الطيبة، وأعين الناس التي أخشى مواجهتها بعدما وأدت حلمي وأهلت عليه التراب، حتى أتاني الفرج على يد من رأف بحالي، واستمع إلى قصتي، فأتى بي إلى هنا لأدفع عن نفسي علامات الموت التي تسكن دمائي، بعد أن قادتني إلى ارتكاب كل تلك الآثام، فربما البحر هو من أوجد داخلي هذا الضمير، وحياتي البسيطة التي كانت تنطوي على التقاط الرزق المتناثر تحت الماء؛ فزرعت البراءة في نخاعي، لكنه الانبهار الذي نحسبه ضوءًا ساطعًا لكن سرعان ما نكتشف أنه نار تحرق كل شيء.

في الليل لابد وأن يكون كل شيء على ما يرام، لابد وأن يكون الفنار في قمة سطوعه وتألقه وبهائه، ولابد أن تعمل الماكينات بلا توقف، فللنور قدسية لا تُضاهي قدسية الصمت الذي يحفنا كالملائكة، ومن أجله يجب أن نعمل بكل ما أوتينا من قوة، أبدل«نور» فتيل المصباح الكبير، واطمأن على الماكينات الثلاث، وربت عليها واحدة تلو الأخرى بعدما جفف يديه في منشفة طواها بعناية، ووقف يتطلع إلى كل ركن في الحجرة الصغيرة ويمسح الجدران بكفيه، ثم حدثني بلهجة ساخرة بأنه ظل يقيس عمره بدرجات الفنار التي كان يجتازها في عشر دقائق خلال أيام الشباب، أما الآن فلم يعد يهتم بزمن الصعود، كما أنه لم يعد يهتم بما تبقى من عمره، أشار إلى الماكينة الثالثة قائلًا:

-الماكنة دي عويلة، خلي بالك منها، ياما سهرتني جنبها.

- ثم أشار إلى الماكينة الأولى قائلًا:

-"أما الماكنة دي فعنيدة، صناعة روسي بتشتغل ليل نهار.

أخفى نور دموعه وراء سعلاته المتحشرجة. وجلس على فراشه يحدثني عن الأدب، فالوحدة تصنع قارئًا جيدًا، وناقدًا كبيرًا، ومستمعًا لا مثيل له، وحكّاءً ينصت له كل من يمثل بين يديه، فأعرب عن إعجابه الشديد برومانسية "إحسان عبد القدوس"، وأناقة "يوسف السباعي"، وذكاء "نجيب محفوظ"، وفجأة احمرَّ وجهه وأخذ يسب ويلعن مؤلف فيلم "زوجتي والكلب"(٣) الذي شوّه حياتهم، واختصرها في حياة رجل خائن مجنون بالجنس، والشك، وامرأة فاتنة، وكلب هائج لا ملامح له، ونسى أن لهم حياة يطهرها الماء والنور. لم يكن «نور»ناقمًا على حالة أبدًا، رغم أنه قضى أكثر من نصف عمره محرومًا من ملذات الدنيا، فعاش قانعًا بقوته المحدود، وأحلامه البسيطة المعلقة بين السماء والأرض، فلم يكن لديه من الأحلام الكثير، ولم يكن يمتلك غير أن يحلم، فيتحدث عن الأثرياء ولا يتمنى أن يكون واحدًا منهم، ويعدد أسماء الساسة الكبار ولا يتمنى أن يكون واحدًا منهم، لكنه كان يتمنى أن يولد القمر، أو تشرق الشمس، أو تمطر السماء، أو تهدأ الرياح، أو تشع الجزيرة كلها بالنور، فللأحلام عنده مآرب أخرى.

وضع صديقه الصغير تحت رأسه ليستمع إلى الأخبار، يحركه يسارًا فيمينًا ليبحث عن المتكلم الذي يظهر ويخفت صوته ثم يختفي، فموجات الإرسال لا يلقيها البحر إلى هنا.

---

(٣) فيلم مصري من إنتاج عام ١٩٧١، وهو الفيلم الروائي الأول للمخرج سعيد مرزوق، بطولة سعاد حسني ومحمود مرسي ونور الشريف وزيزي مصطفى ووحيد سيف.

لذلك فلا وجود لشبكات الموبايل أو أي شيء من هذا القبيل. فقط يمكنك أن تستقبل صوت أم كلثوم من إذاعة إسرائيلية. أو موسيقى صاخبة من إذاعة أوروبية، أو خطبة هوجاء من إذاعة فلسطينية عابرة. أما الإذاعات المصرية فهي زائر مرهق يريدك أن تلتقطه من كل مكان ككرة "البيسبول" الأميركية اللعينة. لتسمع منه كلمة من هنا وكلمة من هناك تجمع بها خبرًا كاملًا. أو ناقصًا. فالأخبار هي الأخبار مهما اكتملت أو نقصت أو حتى انعدمت. وعلى تلك الجزيرة لا خبرًا جديدًا إلا لثورة النور التي تتهافت عليها الأسماك من كل حدب وصوب لتضيء في حلكة البحر، لم يكن هنا غير اللاسلكي المتهالك الذي يمكن به أن ترسل صوتك للعالم الآخر أو تستقبل صوتًا غير صوتك الذي يمور داخلك طوال الوقت. لتتلقى به التعليمات الجديدة الصارمة التي لا جدال فيها. أو تخبرهم بحماس بأن كل شيء على ما يرام، فغير مسموح لك إلا أن تخبرهم بأن كل شيء على ما يرام، حتى تأتي باخرة المؤن تحمل إليك طعامك وشرابك، وتعود إليهم بالخبر اليقين: أنك ما زلت تحيا على تلك الأرض، تضيء مصابيح النور، وتروِّض الصمت. وتنتظر الشمس كي تغرب كل يوم.

انقطعت الأخبار بعد أن نفدت بطاريات الراديو، فأصبحنا نغزل لأنفسنا أخبارًا من الماضي نفتدي بها أرواحنا. كهدهد سليمان الذي افتدى روحه بنبأ بلقيس وقومها. أما الراديو هنا فقد كُتب عليه الموت كمدًا.

اللون الأحمر يخضب الأرض، يلمع مع المطر وتعاريج الرياح. فبدا المكان كلوحة سريالية رائعة. وكأن معركة انتهت هنا للتو، مخلفة وراءها فوضى أقدام، وبحر من دماء. كان«نور» مازال مسندًا ظَهره إلى جدار

صخري قديم مواجهًا للبحر، ينتظر باخرة المؤن التي ستلقي به على الشاطئ الآخر إلى الأبد، لكنه فقد الأمل لاستحالة قدومها في مثل تلك الأجواء العاصفة. لم أستطع أن أفسر ما ترسله إليّ انطباعات وجهه، سعيدًا، حزينًا، غاضبًا؟! فقسماته، تتحدى أي تأثير تافه يقفز أمامه من هنا أو هناك، طلب مني أن أجلس إلى جواره، قبض على حفنة من الرمال، ثم كشف عنها بين أصابعه المجعدة، وبعين زائغة أخذ يقص الأسطورة القديمة، فالهروب إلى الحكايا دواء فعَّال يبطل كل الهواجس العالقة في النفس، فملكة فرعونية عظيمة، ذات حُسن وجمال، كانت تأتي إلى تلك الجزيرة أول كل شتاء محمَّلة بالخير الوفير، تخلع ملابسها كاملة فيغمرها المطر، وتفرد شعرها الطويل على الصخر، وتنادي في عرائس البحر فتخرج وتنقض ضفائرها وتمشطها بالماء والعطر، وتضع على رأسها تاجًا جديدًا من المرجان، وتلبسها ثوبًا قرمزيًا فضفاضًا، ثم ترحل في مركبها الشراعي بعد أن تلقي عشرين ألف قطعة من الذهب في الماء، وتشعل شمعة ضخمة يظل ضوؤها ساطعًا حتى تعود بعد عام كامل وقد أنجبت طفلًا جديدًا لملكها. وذات شتاء أتت إلى هنا وخلعت ملابسها كاملة فأستعصى عليها المطر، فجلست تنتظر حتى أغشاها التعب، فاستلقت على تلك الصخرة، فراح الصيادون يتهامسون، ويتغامزون، ويشيعون في كل مكان بأن الملكة الحسناء قد سلَّمت نفسها لـ"رع" إله الشمس، حتى وصل الخبر إلى زوجها الملك، فاستشاط غضبًا وأمر بالإبحار ناحية الجزيرة، فلما وصل ورآها على هذا الحال، أمر حرَّاسه بالقبض عليها وتقييدها بالأغلال، وعقدت المحكمة دون دفاع، فسارع كبير الكهنة بإلقاء خنجر ذهبي تحت قدمها، بينما أصدر

القاضي حكمه بأن تغرسه في قلبها حتى الموت، حرروها من قيودها ورحلوا عنها. التقطت الخنجر من الأرض، وأخذت تردد بصوت شجي:

لأنني الأولى والأخيرة(٤)

لأنني المُبجَّلة والمُحتقرة

الزوجة والعذراء

الأم والابنة

لأنني ذراعا أمي

لأنني العاقر ولأن أولادي لا يُحْصون

لأنني الزوجة والعزباء

لأنني من تُنجب ومن لم تنجب قَط

لأنني الزوجة والزوج

لأنني كل ذلك

قدموا لي الاحترام على الدوام

فأنا الفاجرة وأنا المرأة النبيلة

---

(٤)من ترنيمة إيزيس.

رفعت رأسها نحو السحب المتجمدة في الآفاق تستجدي آلهة الحب والعدل والحياة، أغمضت عينيها، وأنهت الأمر، في حين انطلق طائر من صدرها يغرد في السماء، فانطفأت شمعتها، وهاج البحر، وسقط المطر وصبغ رمال الجزيرة كلها بالدماء، فشع جسدها يضيء الظلمة سنوات وسنوات حتى تحلل، وذاب، واختفى بعدما طغت عليه ذنوب البشر، فأقاموا عليه هذا الفنار تخليدًا لذكراها، فطواها الزمن، ونساها الناس، أما الرمال الوفية فلا تنسى أبدًا.

حمل«نور» حقيبته وعاد إلى غرفته، ومن ورائه كلبه، أغلق عليه بابه، دون أن يطلب مني أن أطمئن على الماكينات، أو أتأكد من مواضع العدسات، أو حتى إعداد طعام العشاء، ف«نور» لم يعد يفكر إلا في مصيره المجهول، وحياته الجديدة التي ستتلقفه بعد أن يرحل من هنا، ولكن طبيعته كرجل محارب للظلام تجعله يقاوم مشاعر الخوف من مستقبل لا يعلم عنه شيئًا، فهو يبحث عن بداية أخرى بعدما أجبرته القوانين أن يكتب نهايته هنا، لكنه يخشى ألا يبدأ مرة أخرى في مكان آخر.. اقتربتُ من غرفته وبينما هممت بطرق الباب سمعته يتحدث، لم يكن يتحدث إلى نفسه، فنور ليس رجلًا مجنونًا، لكنه كان ممسوسًا بالروعة التي جعلته يتقن محاورة كلبه، يُفهِمه، ويفهمه ويخيّره بين البقاء هنا أو الرحيل معه، لم تأتني بعدها إلا أصوات أنفاس متبادلة تتخللها لحظات صمت.. قطعتها بطرقات خجولة.. لكن«نور» لم يجب.. لم يشعر بأن إنسانًا آخر جاء يستجدي صوته.

صوت الرعد يتهاوى مع ومضات من البرق الأبيض، أما المطر فجاء ينقر زجاج نافذتي المستديرة بلطفٍ جميلٍ، جو الغرفة دافئٌ وكأن أحدهم قد

أوقد مدفأة حجرية في مكان ما، لكني أحتاج إلى ما هو أكثر من الدفء، أحتاج إلى شخص يضمني إليه، ويربت على ظهري، ويقذفني لأعلى ثم يتلقفني قبل أن أُطرَح أرضًا. أحتاج أن أشعر أن هذا المطر جاء من أجلي أنا، بعد أن انقطعت عنِّي الرسائل. أمسكت بملعقة طعامي وأخذت أطرق بها على سريري الحديدي، على المنضدة، على الكرسي، على الباب، أريد أن أسمع صوتًا هنا، وهناك، أريد أن أسمع صوتًا آخر غير ذلك الصوت الذي يهدني، وينخر رأسي كمسمار، لكن صخبًا كان يقترب، توجهت إلى النافذة لأتحقق أكثر، انتهى الصخب، أيقنت أنني واهم، فالصوت كالماء، إذا اشتقت إليه قفز إلى أذنيك سرابًا. دخلت في فراشي، ووضعت الغطاء فوق رأسي، وأغمضت عيني لأصطدم بالظلام، لكن الصخب عاد، نهضت من فراشي سريعًا، وارتديت معطفي، وحملت مصباحي وخرجت لأستطلع الأمر.. لقد اختفى المطر وجفت الرمال، وانتشرت النجوم في السماء، وكأن شيئًا لم يكن، التفت ناحية البحر، فرأيت كتلة ضوء تبزغ من بعيد وتقترب مع الصخب المتواتر، ركضت نحو«نور» لأخبره بأن باخرة المؤن التي طال انتظارها شارفت على الوصول لتحمله إلى شاطئه الأخير، لكن أوقفتني أصوات الألعاب النارية والتهليلات التي انطلقت من هالة الصمت، تراجعت إلى الخلف ووقفت على صخرة عالية لأتطلع إلى اليخت الفخم الذي رسي في مواجهة الجزيرة، وأخذت أرقص وأرقص، على الموسيقى الأوروبية الماجنة، وأصفع الهواء بكؤوس الحظ الفارغة، وأتحدى بثقلي الضئيل جاذبية الأرض لأطير نحو السماء ولو للحظة واحدة أسرقها من بين أكف هذا الواقع الذي لا يعترف بالخيال، ولا بكل محاولات الطيران، لكنني تفاجأت بنور يقف جواري ومن ورائه كلبه الذي أخذ ينبح ويلبح ويهز ذيله فرحًا،

ربت نور على كتفي مبتسمًا، فلم أشعر بجسدي إلا بين يديه وهو يضمني وسط دموعي التي انهمرت رغمًا عني، التفت إلى اليخت لأرى الحياة الأخرى للمرة الأولى من بعيد، ثم عدت إلى الرقص بل رقصنا جميعًا على أنغامها وأضوائها المتلألئة دون أن تمسّنا أو نمسّه.

* * *

(٢)

"عايدة٤"

الفنار يبتعد بينما الباخرة "عايدة" تقترب من الشاطئ..اختفى الفنار، ونباح "بحّار"، وصوت الطائر المغرد، فأشحت بوجهي عن الفراغ الذي خلفه البحر، وانضممت إلى زملائي الذين التقطتهم باخرة المؤن من الفنارات المتناثرة، منهم من هو شاب صغير لا أعرفه، ومنهم من رافقني في رحلة عمري، وضرب البياض رأسه، ومنهم من سقط اسمه من ذاكرتي، لكني مازلت أحفظ وجهه جيدًا، كانت أحاديثهم البسيطة عن الرواتب، والعلاوات، والبدلات والأسعار والأحوال والأهل والعيال لا تروق لي، فأنا أشعر الآن بأنني لا شيء، فالسفينة التي تنحرف عن مسارها وتضل طريقها في البحر بغير هدى؛ هي لا شيء، فبعد أن كنت أمتلك كل خيوط النور التي أُهدي بها القاصي والداني، أصبحت الآن أبحث عن خيط واحد أكشف به السبيل القصير الذي لابد وأن أقطعه لأكمل ما تبقى من حياتي، فلم أخبر زملائي بأنني لن ألقاهم أبدًا بعد يومي هذا، ولم يسألني أحد منهم عن سبب صمتي، فهو أمر عادي جدًا أن أصمت أو يصمتوا، لكنني انتفضت حينما زعقت صافرة الباخرة زعقات متتالية، فسرت قشعريرة في جسدي كله عندما أخبرني ضابط من طاقمها بأن القبطان كان يُرسل إليّ التحية، ويُقرئني السلام، فتلك

الطقوس لا يمكّن أن تُقام إلا لرجل أفنى عمره مخلصًا في عمله، وأنهى خدمته رافعًا رأسه لأعلى، بينما أصبح محرومًا من العودة إلى هنا. فالتفّوا حولي جميعهم مَن يُهنئني، ومَن يواسيني، ومَن يشد على يدي، ومَن يمازحني إلا أنا وحدي من كنت أشعر بأنني انتهيت.

تمنيت أن أرى صديقي «طه عزيز» في تلك اللحظة، كي أصيح في وجهه بأن القدر لم يرأف بي فأنجاني من الموت برصاص جندي إسرائيلي أحمق، كي ينتهي بي الأمر بأن أموت حيًّا، أما هو الذي ضحى بحياته فلن يموت أبدًا- ترحمت عليه-. ثم شردت بعيدًا نحو بقعة الضوء التي تضيء دائمًا داخلي، والتي ظللت أطويها عمدًا كي أستطيع أن أمر من تلك الدنيا، بعد أن فقدت جأشي تحت وطأة النار. رأيت «طه عزيز» يجلس هناك على الشاطئ يجمع الأخبار الطازجة من أفواه الجنود العائدين من الإجازات، ويشاركهم طعامهم من البط، أو الأوز الفلاحي، في حين كنت مشغولًا بتجهيز الماكينات لاستقبال ليلة مقبلة بعد أن تلقينا التعليمات بأن نضيء الفنار في ذلك اليوم(٥) بعد انقطاع دام أسبوع كامل من الظلام إلا من ضوء الشموع، وتوهج أفواه الجنود بالسجائر، فالطيران الإسرائيلي يكثف هجماته الليلية ليصطاد بها كل حياة على الأرض حتى ولو كانت رائحة لشعاع نور أراد أن يبزغ ليلًا من مكان ما.

---

(٥)المقصود به معركة شدوان وهي واحدة من أهم العمليات التي قام بها العدو الإسرائيلي في ٢٢ يناير ١٩٧٠ وتصدت لها قوات الصاعقة المصرية ببسالة، وشدوان عبارة عن جزيرة صخرية منعزلة في البحر الأحمر.

لكن شمس يناير الرحيمة التي كانت تتسلل من فتحات التهوية في الفنار، مع البرودة الصباحية المنعشة، وصوت الطائر المغرد الذي يصدح مع صيحات الجنود في طابور تبادل الخدمة، يتخمني بالأمل بعد هزيمة كسرت داخلي معاني كثيرة عن كلمة "وطن". بينما لم يفقد «طه عزيز» هذا الأمل أبدًا فهو مؤمن أن الهزيمة مجرد كبوة وستمر، وأن "عبد الناصر" سيزورنا يومًا ما في هذا الفنار وينقل لنا بنفسه أخبارًا جديدة، ويشرب معنا الشاي-كان دائمًا ما يمزح بذلك- ورغم أن «طه عزيز» يشبهني تمامًا، حتى إن كل من يرانا يعتقد أننا قد وُلِدنا من رحم واحد، إلا أنه كان قويًا مُحِبًا للحياة، أما أنا فلا لم تكن لدي طاقة على التحمل، فقط كنت أقوم بعملي وأظل منزويًا حتى يأتي اليوم الذي أعود فيه إلى الشاطئ الآخر، لكن مع مرور الوقت علمني صديقي كيف أواجه الطبيعة، وأفسر كل أفعال التي أمارسها، وأصنع منها قيمة كبيرة كي أؤمن مثله بالنور، فلا حياة هنا لرجل لا يؤمن بالنور، فحولني إلى عالِم وحكيم وعابِد، وصياد، وحطّاب، وطبّاخ، ومتأمل في خلق الله.

قصفُ الطائرات الإسرائيلية لم يمنحنا الفرصة كي نستقبل الليل ونملأ هذا العالم بالنور، لم يرحم مكانًا على الجزيرة إلا ونال منه، بينما كانت صواريخ الدفاع الجوي تنطلق في اتجاهات متعددة، وسط تكبيرات الجنود الذين أقسموا ألا يتجرعوا كأس الهزيمة مرة أخرى أبدًا، لم أكن أصدق بأنني سقطت داخل معركة حربية أشهدها وأسمع انفجار قنابلها وأزيز طائرتها بنفسي، فقررت أن أدفن جسدي بين الماكينات لأهرب، أو لأتلقى الموت دون أن أشعر بألم، لكن «طه عزيز» ظل يقذف درّج الفنار خلفه مرددًا بأعلى صوته:

-ضربنا طيارتين لأولاد الكلب يا نور.

ثم أخذ يكبر ويهلل حتى وصل إلى حجرة الماكينات، بعدها ساد الهدوء، لكن سرعان ما قضت عليه مدفعية العدو بدويها المتلاحق، كان «طه عزيز» يضمني إليه بعد أن أخذني وانبطح بي أرضًا، وهو يخفض رأسي لأسفل كلما هممت برفعها لأشاهد نتائج القصف من النافذة الجانبية، شبك أصابعه بين أصابعي، ونطقنا الشهادتين معًا حينما أصابت قذيفة طائشة الجزء الشرقي من الفنار، وهو يعيد ضمي إليه بقوة ويطمئنني ببعض كلمات بأننا سنعيش.. ستعيش يا «نور».. حتمًا سأعيش يا«طه»كي تمر ذكرى الموت من أمامي، كلما أقبلت على الحياة، بعدما صدقت نبوءتك، وأصبحت الآن أنهي قصتي الطويلة بيديّ بعدما أخذتني الأيام إليها، وانسحبت أنت دون وداع، دون أن يقيم لك القبطان طقوس التقدير، ودون أن يخبرك أحدهم بأنك أصبحت شيخًا عجوزًا آن لك أن ترحل رغمًا عنك، وتغادر في هدوء لتجالس من يجلسون خلف شارات الزمن ينتظرون ساعة انقضاء الأجل، لتتجدد خلاياهم بعدما يأكلها التراب، وتنبت منها سيقان خضراء، تسير نحو مدائن الأحياء، لتذكرهم بأمم قد رحلت، لتأتي بعدها أممٌ.

عاد الهدوء مرة أخرى، وخرج رجال الصاعقة من مخابئهم رافضين الاستسلام للعدو الذي اعتقد أن قصف الطائرات والمدفعية قد أنهى كل شيء، وراحوا يصوبون أسلحتهم تجاه القوارب الحربية التي انفتحت بطونها لتخرج ما بداخلها من جنود، بينما ألقت طائرتهم العمودية جنودًا آخرين من سلاح المظلات ليحكموا الحصار حول قواتنا من شمال الجزيرة وجنوبها، ودارت المعركة الطاحنة بين أناس يتشبثون بأرضهم

حتى الموت وأناس جاءوا ليقتلوا.. فقط ليقتلوا. فنزل «طه عزيز» مسرعًا إلى قائد القوات المصرية يطلب منه سلاحًا ليشارك في المعركة لكنه رفض بشدة وأخبره بأن مهمتهم هنا هي حمايتنا وحماية الفنار والأرض. وطلب من كل العمال المدنيين الدخول إلى المخبأ حتى تنتهي المعركة. لكن «طه عزيز» قفز إلى صخرة عالية وأخذ يصرخ بشدة:

-انتوا عايزين مننا إيه..يا ولاد الكلب.

فإذا بجندي إسرائيلي يسدد إليه رصاصة من مدفعه الرشاش. فيغيب «طه عزيز» في الجانب الآخر. لم يكن أمامي إلا أن أنصاع لأوامر القائد وأحتمي بالمخبأ. لكن أسئلة كثيرة كنت أطرحها على نفسي في تلك اللحظة. عن ابني الذي لم يكمل شهره الأول. وأمي التي تصارع المرض. وزوجتي التي تنتظر عودة رجلها بشغف. كنت لم أستوعب بعد ما حدث لصديقي. فالحياة تحت سقف النار تجعل التفكير يبرق في ذهنك ويختفي سريعًا. والموت فقط هو من يملأ عليك كل ثغور الماضي والحاضر التي تنبثق حولك من كل ناحية. فتمر أمامك كل الوجوه التي رأيتها طوال حياتك. لكنك أبدًا لا ترى وجهك أنت. فتقف عاجزًا كأنك ميت.

انتهت المعركة وانسحب العدو. وانعجنت الرمال بالدماء. وسقط المطر ليغسل الأرض. أما الطائر المغرد فكان يصدح حزينًا. على من أُزهِقَت أرواحهم دون رحمة. فرأيت جثامين شهدائنا وقد حملتها قوارب الصيادين إلى الشاطئ حيث الأرض التي تعانقهم وتحتفي بهم في هدوء. أما أنا فقد أُسِرت مع من أسروا. وأصبحت في قبضتهم مستسلمًا تمامًا. بعدما أرادوا ألا يخرجوا من المعركة صفر اليدين. بينما قتلاهم ارتفعت

بها طائرتهم إلى حيث لا أعلم ولا أريد أن أعلم، رفعت رأسي ناحية الفنار قبل أن يقيدوا يدي ويعصبوا عيني، فظلت صورته مطبوعة أمامي تضيء الظلام، مددت يدي لأقبض على يد من يجلس جواري في القارب الحربي، كي أؤنس روحي، وأشعر بأن هناك من سيلقى نفس مصيري، فالخوف إذا عمّ يتحول إلى ألفة تشد ظهرك، وتقف جوارك حتى يعود إليك النور، أخرجونا من القارب، وألقونا في صندوق حافلة قطعت بنا أرضًا وعرة، ثم توقفت فجأة فأنزلونا للسير على قدمينا في الصحراء حتى كدنا نموت من التعب، فمنحوا كل واحد منا جرعة ماء واحدة أما من تسوّل له نفسه ويشرب جرعتين يقتلوه بدم بارد، فقذفوا بنا في عربة قطار ممتلئة عن آخرها بالماشية وروثها، ظل القطار يسير ببطء وسط تأوهات، وسباب، وشتائم، ودعاء، لكن لا أحدًا منا كان يعلم متى ستتوقف، لكننا جميعًا كنا على يقين بأننا نقترب من الموت.

في تل أبيب جلست أمام المحقق الإسرائيلي، الذي ظل يدور حولي مرات عدة، وينفث دخان سجائره في وجهي، قبل أن يسألني عن اسمي، وعملي، وراتبي، وعدد ساعات عملي، وحالتي الاجتماعية، وكم أنجبت من الصبيان والبنات، وعن علاقتي الحميمية بزوجتي، وجنود الجيش الذين كانوا يقومون بحماية الفنار، واسم قائدهم، ورتبته العسكرية، ونوعية أسلحتهم، وأطعمتهم، وسجائرهم، وعددهم، وأسمائهم، لكني مع كل سؤال كنت أجيب (أنا موظف مدني)، صرخ في وجهي، وأمر بالزج بي في زنزانة منفردة، ثم عاد في اليوم التالي يسألني الأسئلة ذاتها، وكرر ذلك في اليوم الثالث والرابع، لكنني ظللت متمسكًا بإجابتي (أنا موظف مدني) صرخ في وجهي بالعبرية في اليوم الخامس وأمر أن يقوموا بإطعامي طعامًا

فاخرًا ثم بإعدامي رميًا بالرصاص، كنت مازلت لا أرى النور منذ أن وقعت عيني على رأس الفنار لآخر مرة، فلم يفكروا في إزاحة العصابة السوداء عن وجهي، وكأنها صارت جزءًا لن ينفصل عن جسدي أبدًا، لذلك تلقيت خبر إعدامي كما الحلم، بعد أن تحول الخوف إلى صوت لا ينقطع داخلي حتى أصبح شعورًا عاديًا جدًا.

أطلقوا نحوي ثلاث رصاصات، بعد أن رددت الشهادتين وسلمت أمري لله، لم أشعر بألم بعد، فتحسست جسدي وانتظرت أن أسقط مضرجًا في دمائي، لكنني تفاجأت بضحكاتهم تحاصرني، بصقوا في وجهي وسحلوا جسدي على الرمال حتى انخلع سروالي، وانكشفت عورتي إليهم، فسمعت مجندات تسخرن من عضوي الذكري، ومجندين يسخرون من مؤخرتي، ورأسي، وأذني وأنفي، وشعري، وبطني، لم يتركوا فيّ شيئًا إلا ونالوا منه، وسط سباب، وركلات، وضحكات لا تتوقف، ودموعي التي تسيل خلسة، ألقوا بي مع باقي الأسرى في صندوق سيارة مكشوفة، جابت بنا شوارع تل أبيب، وبئر سبع، فاستقبلنا المارة بالزجاجات الفارغة، والخضروات الفاسدة، والأحذية، والحجارة، والشتائم التي لم ترحم شرف أمهاتنا، لم أكن أفكر في تلك اللحظة سوى في النور الذي فقدته، تحت ظل أحذيتهم، وأنا أتوسل إليهم بأن يرفعوا عذابهم عني، ففكرت بأن ألقي بنفسي من السيارة، أو أضرب رأسي في جوانبها الحديدية لأنهي حياتي وأذهب إلى الموت بنفسي، قبل أن يسخروا مني مرة أخرى دون أن يمنحوني إياه، لكنني تراجعت عن الفكرة بعدما اصطدمت يد أسير بعورتي المتكشفة فخلع سترته العسكرية ولفها حولي ليداري سوءتي دون أن ينبس ببنت شفة، بينما انطلق صوت يغني من قلب العتمة التي

خيمت علينا جميعًا لتقفز داخلنا قطرة أمل "هم هم هم غابة كلابها ديابة نازلين في الناس هم، واللي ينام في الغابة راح يتاكل هم، واللي يدوَّر وشه في غمضة عين يتهم، واللي يغيب عن جحره لجل القوت والمم، يتخان من ورا ظهره أو يتاخد خَم، غابة بتاكل ميتة غابة بتشرب دم، غابة كلابها ديابة نازلين في الناس هم هم"(٦)، أخذنا نردد خلفه بكل ما أوتينا من قوة، ونضرب بأرجلنا في أرضية السيارة، وكأننا ننتقم من صمتهم، ورائحتهم، وصخبهم، وقهرهم، ومن كل شيء هنا، لم ننصَع لأوامرهم بأن نكف، بل ارتفع صوتنا أكثر وأكثر ونحن نردد خلف من يغني بإصرار، لكنه توقف فجأة عندما أطلقوا عليه الرصاص ليخرسوا صوته، بينما لم نتوقف نحن، لم نتوقف أبدًا عن سرد أوجعانا، وتأوهاتنا التي باتت تطغى على صوت الرصاص الذي كان يرتفع من حين لآخر، حتى انتهى بنا الحال إلى الصمت.

في سجن غزة استقبلنا ضابط إسرائيلي بترحاب شديد، ثم أمرنا أن نخلع أحذيتنا، ونجلس كما تجلس أنثى القنغر، وأخذ يسأل كل شخص فينا عن اسمه الثلاثي، واسم أمه، وزوجته، وأخواته البنات، وخالاته، وبنات خالاته، وعماته وبنات عماته، وعنوان منزله، وأخيرًا رتبته العسكرية، ثم أطلق على كل واحد فينا اسم امرأة، لكنه توقف عندي قليلاً ثم سألني عن بنطالي، فأجبته بصوت وهن:

-خلعوه..هناك.

---

(٦)أغنية من تأليف أحمد فؤاد نجم، وغناء وألحان الشيخ إمام.

فاستكمل ما بدأه من تدوين الأسماء وكأنه لم يسمعني، وبعدما انتهى، أمرنا أن نجلس القرفصاء في مواجهته ثم خطب فينا بلهجة شامية وبأسلوب سمح رصين، تلى على أسماعنا يقول الرب: "حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصُلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبقِ منها نسمة ما".(سفر التثنية-إصحاح ٢٠)، فوجودكم على قيد الحياة هو مخالفة لأوامر الرب، لذلك فنحن نتضرع إليه وندعوه كل يوم بأن يسامحنا على فداحة ذنبكم..صمت قليلاً ثم أمرهم أن يحررونا من قيودنا وتوزيعنا على العنابر.

انهالوا علينا بهراواتهم دون أن نرى وجوههم التي كانت تستلذ بتأوهاتنا، واستجدائنا، وصرخاتنا المتوسلة إلى الله، لكننا كنا نشعر بلفح أنفاسهم اللاهثة التي تحاصرنا من كل جانب، حتى إنهم لم يتركونا إلا بعد أن سالت الدماء من رؤوسنا وأنوفنا وأفواهنا، حررونا من القيود، بعد أن نزعوا عن وجوهنا العُصابات السوداء، بينما كنت محتفظًا بعينيّ مغمضتين حينما تلقيت ركلة قوية أطاحت بي في أحد العنابر، التي كدت أن أختنق من رائحة البراز، والنشادر النفاذة التي انفجرت في أنفي فور سقوطي داخله، فتحت عينيّ ببطء شديد لأستقبل شعاع نور حزين لم

أكن أنتظره أبدًا، لكنني تفاجأت بعمى لحظي قد أصابني بدأ يتبدد شيئًا فشيئًا بمجرد أن وقعت عيني على «طه عزيز» الذي كان ينام متكورًا في أحد الأركان وسط الأسرى من جنودنا.«طه عزيز»؟! يا الله! من منح هؤلاء هذا الجبروت الذي به يتلاعبون بأرواحنا، فيقتلون هذا ويتركون هذا؟، همست باسمه مرات عدة ثم ارتميت عليه باكيًا، فضمني إليه بشدة قائلًا بصوت صلب:

-خليك راجل يا نور.

لكنني ظللت متشبثًا به وسط نظرات جنودنا وأعينهم الدامعة.

أفرغوا مقطفًا من قشر البرتقال اليافاوي وقالوا لنا هذا طعامكم، بعد يومين من الجوع الذي مزق بطوننا، لم نُذهل أو نتذمر، بل رأيناه أجمل وأشهى طعامًا في الدنيا، فتهافتنا عليه نهبش منه ما تطاله أيدينا، وكأننا "ديوك حُمر" تتناحر على حبة ذُرَة نخرها السوس لكنها رائعة لكونها حبة ذُرَة، فصرنا كل يومين من الجوع نأكل، من قشر البرتقال، أو من أوراق الكرنب الأخضر والقُنَّبِيط، أو جراية خبز يخصص كل رغيف فيها لعشرة جنود، أما قضاء الحاجة فيكون في العراء، يفرقنا لوح خشبي طويل، ونجلس وجهًا لوجه ليرى كل منا أوجاعه في ملامح الآخر التي تنكمش وتنفرج بما تعانيه أمعاؤنا من تقلصات، فأحيانًا كنا نبتسم، وأحيانًا أخرى كنا نقهقه، وأحايين كثيرة كنا...؟.

استيقظ «طه عزيز» من نومه منهارًا، عندما امتلأ العنبر بمياه المطر وصرنا ننام جميعنا في الوحل، فأخذ يضرب الباب الحديدي بقبضتيه، وهو يسب الجنود الإسرائيليين، و"غولد مائير"، وأمها وأبيها وإسرائيل

ومن هم في إسرائيل، حاولت أن أمنعه، وأضع يدي على فمه قبل أن يصل صوته إليهم فيقتلوه، لكنه دفعني بقوة، وعاد يسب عبد الناصر، وحكومته وأهله، واليوم الذي رأيناه فيه، ويلعن مصر وكل من هم في مصر، فهاج الجنود وراحوا يهتفون بحياة مصر وحياة عبد الناصر، ويضربون الباب بكل قوة، فدفع الحراس الباب، ودقوا رؤوسنا وجسدنا بـ"دباشك"(٧) بنادقهم، فأمسك «طه عزيز» برقبة أحدهم وغمس رأسه في الوحل حتى كاد أن يفقد أنفاسه لولا أن اجتمع عليه زملاؤه اليهود وخلصوه من بين يديه، كان ذلك اليوم هو يوم المحاضرة المكررة التي تلقيها علينا مجندة إسرائيلية شقراء، ذات قوام ممشوق، وصدر نافر، فتنتظر إلينا من خلف نظارتها السوداء، وتجلس أمامنا، وتسأل كل أسير عن البلد الذي يقطنه في مصر، ثم تخبرنا بأنها من حي "الضاهر"، وأن أمها أكدت لها بأن جارتها المسلمة أرضعتها أكثر من مرة، ومازالت تذكر أسماء أصدقاء طفولتها في المدرسة اسمًا اسمًا، ثم تعود وتقول "نحن أبناء عمومة، وملامحنا واحدة (تتحسس وجهها) وأن اللغة العبرية قريبة من اللغة العربية، وأننا يجب أن نعيش في سلام، ونزرع معًا زهورًا من القاهرة حتى تل أبيب، وأن "ناصر" رجل وسيم ورائع لكنه لا يريد لشعبه السلام، ثم تختم المحاضرة ببكائها، ولا نعلم لماذا تبكي؟ لكني شعرت بأن هناك من أصبح يؤمن بها، ويدافع عنها أحيانًا إذا ما تمتم أحد الجنود بأنه يتمنى أن تقضي معه ليلة ساخنة في أحد الأركان لكنهم حرمونا منها

---

(٧)دباشك: مؤخرات البنادق الخشبية.

، وأبقونا في العنبر نخوض في الماء حتى باشت جلودنا، واهترأت أطراف أقدامنا، فبتنا ليلتنا ننام كالخيول الخشبية التي تستلقي واقفة.

في اليوم التالي أخرجوا سكان العنابر جميعهم في ساحة السجن الكبرى، وشددوا الحراسة على الأسوار، وأصدر قائد السجن أوامره للحُرَّاس بقتل أي أسير تصدر منه أي حركة غير اعتيادية، وأشار لجنوده بأن يلقوا تحت قدم كل واحد منا حقيبة جلدية سوداء أرسلها إلينا "عبد الناصر" بواسطة "الصليب الأحمر"، ثم حذرنا من لمسها أو الانحناء عليها لالتقاطها دون أن يسمح لنا بذلك، وبقينا أربع ساعات كاملة مزروعين في أماكننا نسترق النظر إلى الحقيبة التي حرمونا منها حينًا، وإلى فوهات البنادق الموجهة إلى رؤوسنا حينًا آخر، وفجأة ودون أي مقدمات تلقَّينا الرحمة التي منَّ بها علينا بأن نحمل حقائبنا وننتشر في أنحاء السجن كيفما نشاء..

فتحنا الحقائب..

(ماكينة حلاقة من دون شفرات- زجاجة كولونيا خمس خمسات بعطر زهرة اللافندر- وفرشاة ومعجون أسنان- صابونة معطرة- وبعض أدوية للمغص والصداع والبرد والشاش والقطن والمطهرات- وخمس قطع شكولاتة كرونا- وخطاب قصير لعبد الناصر مكتوب بالآلة الكاتبة ويحمل توقيعه).

أخي الأسير.. مصر لا تنساك..

ستعود قريبًا جدًا.. أو سنأتي إليك.

جمال عبد الناصر..

ابتهجت وجوهنا جميعًا، وعادت لنا بارقة الأمل التي فقدناها إلا من ضوء قمر وشعاع شمس تشرق هنا وهناك، أمسك «طه عزيز» بالخطاب بين يديه وقال لي بعينتين زائغتين (الريس فاكرنا يا نور)، جذب خطابي من يدي، وتطلع فيه فوجده صورة طِبق الأصل من خطابه، فواصل كلامه (لكنه ميعرفش أسماءنا.. الريس بيخدعنا..كلهم بيخدعونا يا نور) لم أرد أن أطفئ فرحتي بواقعيته المؤلمة، حتى هو نفسه قام واحتفل معنا، وتعطر بالكولونيا وضمد جراحه بالشاش والقطن، والتهم قطعة شكولاتة واحتفظ بالباقي لأولاده ليمنحها إياهم حينما يعود.

جاء الدور على«طه عزيز» ليجروه إلى الاستجواب، نظر إليّ وكأنه يودعني، فوصلتني من نظرته رسائل كثيرة قضيت بعدها أيامًا سوداء، فهي المرة الأولى التي يغيب فيها وجهه عني منذ أن أتيت إلى هنا، ليكشف لي بأن هذا السجن ضيق جدًا، وقبيح جِدا، وموحش جدًا، فعشت منزويًا متوهمًا الصمم، والخرس، والعمى، لا أريد أن أسلّم نفسي لهذا الكابوس الطويل الذي سقطت فيه رغمًا عني.

عاد «طه عزيز».. منهكًا جدًا، درجة حرارته تقترب من الأربعين، جسده ينتفض، أنفاسه تتسارع، وفاقد للوعي، سألته عما فعلوه به، لكنه لم يكن يسمعني، لم يكن يسمع أي أحد، بينما كان قميصه يقطر دمًا من الخلف، نزعته عنه فصدمت بجرح قطعي كبير في جانبه الأيمن، حيك بإهمال بخيط أسود غليظ، فتساءل أسير:

-هو كان بيشتكي من الأعور؟.

وقال أسير آخر:

-احتمال يكون عسكري ضربه بالسُنكي(٨) .

لكن قاطعه أسير أخير:

- سرقوا كليته الحرامية أولاد الكلب.

فنهضت من مكاني صارخًا (يا ولاااااااد الكلب.. حتى لحمنا بتسرقوه يا كلاب) وظللت أصرخ، وأصرخ، حتى دخل أحد الضباط بصحبة طاقم طبي، وحملوا «طه عزيز» بعد أن قاومناهم بكل قوة، ودار بيننا صراع طويل طحنوا خلاله عظامنا.. غاب «طه عزيز».. رحل «طه عزيز».. ولم يعد..بينما عدت أنا حاملًا حقيبته السوداء وقِطَع الشكولاتة لأولاده، وخطاب "عبد الناصر".

غادرتُ الباخرة "عايدة" بعدما رست على الشاطئ، ودّعت زملائي وحملت حقيبتي واتجهت نحو باب الخروج من الميناء دون أن ألتفت إلى الخلف، لم أكن أريد أن أضل طريقي الجديد، بالنظر إلى طرق أخرى انتهيت منها إلى الأبد، فشغلني التفكير في مكافأة نهاية الخدمة التي سيمنحوني إياها، وراتبي الذي سينخفض إلى النصف مع أول معاش سأتقاضاه، كنت أود أن أساهم في تحقيق حلم ابني «جابر» الذي سافر للعمل في الخليج من أجل أن يعود ليبني مركبًا للصيد يحمل اسمه "الريس جابر"، وباقي المكافأة أرمم بها بيتي وأجمله، لكن يبدو أن مسألة ترميم البيت سأصرف النظر عنها إذا لم تغطِ المكافأة حلم "جابر"،

---

(٨) السُنكي: سكين طويل يتم تركيبه في مقدمة البندقية.

وأيضًا «فادية» زوجتي تستحق هدية هي الأخرى ولا يمكن أن تسقط رفيقة العمر من "قعر القفة"، وكذلك حفيدي "أحمد" بن جابر واخته "أمل" وابنتي «سميحة» وبنتها "ياسمين" و"شهد"- يووووه- المكافأة تحتاج إلى مكافأة أخرى كي أرضيهم جميعًا، كنت قد وصلت إلى محطة "الميكروباص" الذي سيأخذني إلى السويس، لأركب "ميكروباص" آخر إلى بورسعيد، ومن بوسعيد سأركب سيارة "بيجو" إلى دمياط، ومن دمياط سأركب "ميكروباص" إلى عزبة البرج، وإذا لم أجد سأركب"ميكروباص" إلى رأس البر، ومن رأس البر سأركب المعدية لأعبر إلى الجانب الآخر من النهر وهناك ينتهي مشواري الطويل.

جلست جوار النافذة الزجاجية في الكرسي الأخير داخل الميكروباص المتجه إلى السويس، تحرك السائق من الموقف بعدما أنهى إجراءات "الكارتة" و"الرشوة" وحساب الشاي وما شابه ذلك، في حين هيأت رأسي للصداع الذي سيرسله إليها مع الأغاني الهابطة التي ستعدل مزاجه كما الأفيون، لكنه خيب ظني عندما فتح الراديو على الأخبار، فنظرت إلى عينيه المنتفختين من خلال المرآة الداخلية، فلم ألحظ فارقًا بينه وبين هؤلاء الذين يضربون الدنيا بالرصاص ويحرقونها في سيجارة حشيش، فما شأنه بالأخبار إذًا؟! أسندت رأسي إلى زجاج النافذة وقررت ألا أهتم، فمهما طال غيابي فالأخبار كما هي ذهب الرئيس مبارك، وجاء الرئيس مبارك، عاش الرئيس مبارك.. عاش دائمًا وأبدًا، لكني تذكرت أنني لن أعود إلى الفنار، وأصبحت أخضع إلى سطوة تلك الأخبار التي تُسيِّر الحياة على الأرض التي يحكمها "مبارك" وأهله، رددت المذيعة كلمة "ثورة". رفعت رأسي وأصغيت إليها، كانت تذيع أخبارًا تتخللها كلمة

"تنحي" و"مجلس عسكري" ثم وصلتني كلمة "ثورة" مرة أخرى، فناديت على السائق:

(من فضلك يا أسطى ارفع الصوت شوية) أعادت المذيعة كلمة "ثورة"، تعيد المذيعة كلمة "ثورة"، الركاب يتحدثون عن "ثورة" في شهر فبراير لا توجد أعيادًا للثورة، فتساءلت :

- هَّي الثورة دي قامت فين يا أسطى؟

فضرب السائق "دواسة الفرامل" ضربة قوية انحرفت السيارة على أثرها عن الطريق، وانفجر الركاب ضحكًا وهم يعصرون رقابهم ليتمكنوا من رؤيتي في الخلف، بينما تكور جسدي وأنا أضع يدي على بنطالي لأتحسس أعضائي الذكورية.

* * *

(٣)

بَحَّــــار

الباخرة تبتعد بينما يرتفع نباح بَحّار، وصوت الطائر المغرد، وقلبي الذي يدق، ودمائي التي تدور، فلم أستطع حمل نفسي، فجلست أتابع الباخرة الضخمة التي تحولت إلى قطرة سوداء تذوب في فضاء الماء الممتد، كنت أتهيب الالتفات إلى الخلف وأشيح بوجهي عن البحر، لأنفرد بواقعي الجديد الذي ينتظرني على سطح تلك الجزيرة، حدقت في الأمواج المتلاطمة بدلال لافت، وازدرتُ ريقي، فكم أشتاق إلى زجاجة بيرة مفتخرة (مشبرة)، وسيجار كوبي يحمل رائحة أفخاذ العذارى، ومومس -أمممم- امرأة بالمعنى اللطيف، لأمارس معها طعناتي المحمومة، ثم نستلقي معًا على الرمال بعد أن نقتل الجنون فينا، وفي لحظة إنسانية يقص كل منا حكايته على الآخر، تبكي على صدري قليلًا، فيثيرني ضعفها فأعود لاعتلاء أنوثتها، لامتلاك أنوثتها، للانتقام من أنوثتها وضعفها الذي ينتهك رجولتي فيحولني إلى ذكر وديع، يملأ الدنيا نقيقًا ليجمع حوله النساء من كل جنس وشكل ولون، أعلم جيدًا أنها أمنيات ساذجة، وتقليدية ومضحكة لكنها حقيقة طفل تعلم أن ينام، ويجلس، ويحبو، ويمشي على الماء، قبل أن تدوس قدماه الأرض، لذلك ليس من المضحك أن أتمنى أو أحلم بأي

شيء، فالذنوب تنمو وتكبر ولا تموت على الأرض أبدًا. أما في الماء فتتحول إلى عروس بحر رائعة تتهافت عليها الملائكة.

سألني زميلي الذي كان قد انتهت إجازته، وعاد مع الباخرة عن اسمي، فحدقت في وجهه ثم تفوهت:

عادل .. اسمي عادل.

وهنا انتبهت إلى أن «نور» لم يسألني عن اسمي أبدًا، ولم أسأله أنا كذلك عن اسمه ولا أذكر كيف علمت به ومتى ناديته «نور» للمرة الأولى، لكنه قبل أن يرحل ترك لي ورقة صغيرة تحمل عنوان بيته، قاطعني زميلي الجديد:

-وأنا «راضي».. مأمور الفنار.

وما لبث حتى ظل يثرثر ويثرثر عن بطولاته وصولاته وجولاته، ومغامراته النسائية منها والبحرية، حتى ظننت أنه عبرَ المحيط سابحًا على ظهره وخرج منه دون أن يبتل، ورغم أن أنفه قوقازي مفلطح إلا أنه كان يدسه في كل شيء، بسبب ومن غير سبب، بعلم ومن دون عِلم، لكن نفسي كانت تقبله، لأنه في النهاية لا يضر، بل يمكن الاستغناء عن الراديو في حضوره، حتى إنه هو من أعلمني بأن ثورة ما قد قامت في مصر، لكنني لم أبدِ اهتمامًا بالخبر الكبير، فلا شأن لي بالسياسة، ولا بأباطرة السياسة، تأتي ثورة، تذهب ثورة، وأنا كما أنا لن أزيد أو أنقص، ولا عِلم لي إلا بثورة البحر والرياح والمطر، ولم أعلِّق آمالي يومًا إلا على سطوة النور، فنور القمر إذا عمَّ البحر انعدم الصيد ونضب الرزق، واختفى الخبز، ونُكِست القلاع لكن في البيت يزيد الدفء وتنفلق الحكايات من

بين شقوقه، أما إذا غاب النور وعمّ الظلام يصبح الصيد عيدًا يكثر معه الرزق، وتُشد القلاع، وتتبارى المجاديف حتى تعود محمَّلة بالخير. فرزقي معلَّقٌ دائمًا بين السماء والماء، ولا دخل لي بما يدور على الأرض، ولا بأهلها، ولن يختفي البؤساء من الأرض أبدًا حتى لو قامت كل يوم ثورة.. فالثورة لا تحوِّل الأرض إلى جنة، ولا تحوِّل الناس إلى ملائكة، بل تخلق أملًا للبسطاء، وتخلق مع الأمل طغاة جدد، يأكلون كل شيء، ويتركون للناس الفتات، حتى يموت الزرع ويجف النبع ويتساقط الناس جوعًا، فتقوم ثورة أخرى، تأتي بطغاة آخرين أكثر شبابًا وعنفوانًا، يغمرون الأرض بفساد يحسبه المساكين جنة، فالثورة ليست النهاية الرائعة التي يجب أن نصفق لها في كل مرة.

وقف «راضي» أمام البحر يدخن الحشيش، ويتأمل قرص الشمس المدفون في الماء، فللحشيش رائحة تشبه رائحة المومسات، التي لا يقدِّرها إلا التعساء من هذا العالم، فهو الذي يبدل أدمغتهم بأدمغة أخرى خاوية إلا من البهجة، والنسيان الذي يمنحهم حياة خارج الحياة، فيحولهم إلى أنبياء ظرفاء، يستقبلون الدنيا بحكمة تجمع حولها الناس جميعًا، في حين أنهم لا يتذكرون أنفسهم والحجارة الكبيرة التي تثقل كواهلهم، فيضحكون كثيرًا، ويرقصون كثيرًا، ويأكلون كثيرًا، ويعترفون بأقدارهم كثيرًا، حدقت في وجهه فتظاهر بعدم الاكتراث، وكأنه يجبرني على تقبُّل ما هو عادي في حياته، وما يظن أنه ليس عاديًا في حياتي- فابتسمت- فالتفت نحوي قائلًا:

- تاخد سيجارة؟

- فأجبته وأنا ما زلت محتفظًا بابتسامتي:

- مزاجي الخمر والسلوان.

فعاد يتأمل البحر...

طلبت منه سيجارة ووقفت إلى جواره أتأمل البحر.. سألني بحسرة عن السر الكبير الذي من أجله تمنع الحكومة "الحشيش"، ثم أجاب على نفسه بمنطق هزلي غريب بعد لحظات صمت انتظر فيها إجابتي، (الحكومة تبحث دائمًا عن تعاستنا لذلك تحرمنا من الخبز واللحم، والخمر، والنساء، والحشيش)، وأخذ يردد كلمة (حشيش) مرات عدة، وهو يضغط على أحرفها بين أسنانه بمنتهى القوة، وكأنه ينطق اسم عشيقته التي تمنحه كل شيء يريده دون أن تعبأ بحلال أو حرام، فقط هي تمنحه المتعة المنشودة التي يتمناها في كل لحظة، لذلك كان "الحشيش" المحترق، والمتحول إلى دخان زائل، بمثابة حياة جديدة تدب داخله، وتحفظ له توازنه طوال اليوم.

سحبت نفسًا عميقًا، فازرقَّ قرص الشمس، وشعرت وكأنني أدوس على أرض من لحم، رفعت رأسي إلى الفنار فرأيته امرأة مخروطية رائعة تمد لي يدها لترقص عارية، وترتكب معي كل الحماقات التي كنت قد نسيتها، لقد رحل «نور» إذن وعاد الشيطان بلحظاته الجهنمية، ليفرض عليَّ حلمًا طويلاً، لا أستيقظ منه إلا بالموت، والموت لمثلي خير لابد منه، ليفقد العالم أحد أشراره العظام، نفضت أفكاري مع سحبة أخرى سلَّمت معها نفسي للموسيقى الصاخبة، كل شيء حولي يتحول إلى موسيقى صاخبة، ماذا فعل بي هذا الفأر الذي تسلل إلى هنا؟! بعد أن وصلت إلى مرحلة معقولة من خلع جلدي الفاسد، كنت أطرح الأسئلة دون أن أجيب لكنني كنت أدور، أو تلف بي الدنيا دون توقف، لقد

تركتني "كاميليا" بعد أن قررت ألا تلقاني أبدًا، ولو صدفة لكنها عاهدتني بأن تظل محتفظة بصورتي داخلها، فالعاهرة التي ترافقها دون أن تواجهها بأنها عاهرة لا تنساك أبدًا.

"كاميليا" ..

ليست زهرة بيضاء ناصعة، لكنها "مومس" مذهلة، تمنحك رجولة فحلة ضخمة بنكهة لذيذة، ربما تشبه طعم الكرز اللاذع، أو اللارنج الحامض المستبد، لم يكن لقاؤنا الأول في شارع «بيكال» في باريس الذي تصطف فيه محلات «السكس شوب» مجرد صدفة عابرة، بل كانت صدفة تحتاج إلى صدفة أخرى لأنجو بروحي بها وأعود إلى جُزر الماء والملح، لكنها غواية الطريق والبحر الكبير، التي طالما حذرني منها أبي، وأمي وجيران الأكواخ، والقوارب الصغيرة، فالبحر يأكل القوارب الصغيرة، والطريق يقتل الكبير والصغير، أما "كاميليا "فكانت حياة أكبر من البحر والطريق.

رست سفينتي في ميناء "مارسيليا" بعد رحلة طويلة قطعتاها من "بورسعيد" مرورًا بموانئ عربية وأوربية عدة، نفرغ ونشحن، ونُخرج ونُدخل، ونرفع ونُنزل، في عنابرها الشاسعة بضائع تحمل روائح وملامح أقوامها، لكن"مرسيليا" ليس لها إلا ملمح واحد يقود إلى عوالم الجن والملائكة في باريس، فالحكايات والصور التي رسمها لي "سمير المالح" على متن السفينة خلال رحلتنا الطويلة عن المدينة، جعلتني أترقب لحظة الوصول إليها بفارغ الصبر، بعدما عشت مشاهد لا تُرضي طموحي في موانئ العرب المتخمة بالقسوة، والدخان والنار؛ فبحر من زيت، وأناس من حجارة، ومدن من طين ودماء، وشوارع باهتة خالية من النور مهما

ارتفع فيها ألف نور، فكل الرؤوس والأنوف والأيادي والأصوات، الألوان تتشابه، ويسقط كل جميل في حضرة البؤس وتبقى فقط أفواه تفتح عن آخرها لتلتهم كل شيء بلا رحمة، لكن في "مارسيليا" كان كل شيء يدعو إلى الرحمة. فما رسمه "سمير المالح" من صور لا يعبر حتى عن ركن قمامة في المدينة الحالمة. فالأجواء ملفعة بالزرقة، وعطر البحر المفعم بالحكايات الجديدة. كنت أشعر بأنه سيكون لي حكاية جديدة هنا، تبدأ من مطعم ما، مقهى ما ، أو حانة يقف على بابها رجلٌ بكرش متهدل يعصر خمرًا، أو امرأة جميلة ترتدي فستانًا قرمزي وتكشف عن ساقيها وترقص الـ"صالصا". لكن "باريس" كانت هي التي تناديني بكل قوة لأمزق شِبَاك الصيد التي يصنعها أبي ويلفها حولي في مضيق من ماء وملح، لأظل حبيس الأكواخ والهيش، أمد يدي للطيور المهاجرة، وأحلم أن أعلق بأرجلها لتحملني معها إلى حيث تحط. فـ"مارسيليا" مدينة رائعة وغاية في الجمال، لكن من يسعى إلى الذنوب قد تثيره الروائح الكريهة، ولا يشغله الجمال.

في محطة "سان شارل" جلست أتأمل الخريطة المرسومة على ظهر تذكرة السفر. فالطريق الطويل إلى باريس محفوف بخضّارٍ شاسع، وألوانٍ يافعة، وقرى صغيرة تشبه عوالم الكرتون التي وقعت عيني على حقيقتها المبهجة عندما أجلسني أبي أشاهد التلفزيون الملون وأشرب "الكازوزا" على "مقهى الصيادين" في دسوق لننتظر أحد تجار الأسماك الذي سنعقد معه صفقة خاسرة لشراء ما تلتقطه قواربنا الصغيرة بعدما ركدت تجارتنا على الطريق بسبب شائعة انتشرت عن تسمم الأسماك في بحيرتنا، قبلها كنت أظن أن العالم هذا كله ينحصر بين

الأبيض والأسود ولا ألوان أخرى غير لون الماء والسماء وما تحمله جلودنا من سمار. يومها اكتشفت أنني كنت أعيش خدعة كبيرة مع التلفزيون القديم الذي نجتمع حوله كل ليلة في كوخ " الطنيب" (٩) والذي يعمل ببطارية سيارة عرجاء يُعمرها بـ"ماء النار" كلما نفدت. فالعالم خارج كوخه كله ملطخ بالألوان لكننا لم نكن نعلم تلك الحقيقة أبدًا. حتى إنني عندما عدت تمنيت أن أُعير عينيّ لكل من خُدِع مثلي ليرى بنفسه الحقيقة الرائعة. خرجت من تلفزيون "الطنيب" ومن "مقهى الصيادين" في دسوق، ونظرت إلى الناس من حولي في "سان شارل" وانفجرت بضحكة تكاد تكون مسموعة. فكل شيء أضحى كبيرًا جدًا منذ أن تحررت من حلقات الهيش. قاربي الصغير صار سفينة كبيرة جدًا. بحيرتنا الضحلة صارت بحرًا عميقًا وشاسعا جدًا. كوخنا الخشبي صار مدنًا. ونواظري التي لم تكن ترى إلا ضفتين صغيرتين من ملح أتكئ عليهما بمجدافي لأدفع بقاربي إلى الأمام. صارت ترى.. وترى.. وترى عوالم بلا ضفاف.

توقف بي قطار "جي تي في" السريع في محطة "غار دو نورد" في قلب باريس، بعد رحلة دامت ثلاث ساعات قطفت من عمر جولتي الحرة المسموح بها في فرنسا. فيجب أن أكون غدًا على سطح السفينة عند الرابعة مساءً. حيث موعد التفريغ والشحن بعد أن تكون السفينة قد أخذت دورها. وتهيأت على رصيف الميناء؛ فعملي يتلخص في كوني أحد أفراد الفريق الخدمي على السفينة. من تنظيف وغسيل ومسح ودهان

---

(٩)الوتد الخشبي الذي تربط فيه القوارب ويطلقه الصيادون على الحارس الليلي .

ومراشم ، وفتح وغلق بوابات العنابر، وإعداد "المستودعات" ليلتقطها "الونش" ويفرغها على الرصيف، أو يشحنها من على الرصيف إلى داخل العنابر. لذلك لزم عليَّ أن أستمتع بكل لحظة في مدينة الأنوار، وأستثمر كل دقيقة بل كل ثانية قبل أن يفوت الأوان، ويقطع سيف الوقت ما لملمه صبي الماء في غفلة من الحظ البائس.

تفحَّصني سائق التاكسي الزنجي من رأسي حتى أخمص قدميّ، وقذف قطعة العلكة التي كان يطحنها بين أسنانه، وأومأ برأسه أن أركب، بعد أن قطعت عليه طريقه أمام محطة القطار، ودون أن أنبس ببنت شفة، أو أحدد له وجهتي، أخذ يدور بي في شوارع باريس الأسطورية التي تفصلني عنها نافذة من الزجاج تهيبت أن أزيحها ولو لثوانٍ معدودات، ثم توقف بي فجأة وألقاني في شارع "بيكال" بعد أن حرك فمه باللغة الإنكليزية طالبًا فرانكين، فسرت أتفرج على فتارين المحلات التي تعرض أدوات وألعاب وملابس الجنس، والدُمى التي تتقمص أدوارًا وأوضاعًا جنسية تطير معها العقول، وبائعات الهوى اللوتي يقفن ينتظرن زبائنهن ويعلقن في أعناقهن الشهادات الصحية وما إلى ذلك من أوراق تجلب الاطمئنان، وقفت مذهولًا وكأنني سقطت في حلم طويل سأستيقظ منه بعد أن يكون جسدي قد قذف عنِّي دفقات الرغبة، لكن حتى أحلامي التي كانت تراودني وتخلصني من رغباتي لا يمكن أن تصل إلى هذا الحد من الفجور، لكنه هنا ليس فجورًا بل هو أمر عادي جدًا، وكأن من يرتكب الذنوب مع غانية منهن فلن يحاسبه الله، فالله يحاسبنا على ما نخجل منه ونخشى أن يطلع عليه الناس، أما في هذا السوق فالكل متاح له أن يتفرج ويبيع ويشتري دون خجل، لقد كان "سمير المالح" صادقًا عندما قال: "إن

ملامحي العربية ستقودني إلى الجنة في باريس". لكن السندريلا يجب أن تعود إلى سفينتها في الوقت المحدد قبل أن تتحول الجنة إلى نار. ويتغول الجمال ويصبح عملاقًا يقتل كل أحلامي التي طالما أخذتني إليها في قاربي الصغير وأنا مستلقٍ على ظهري في ليالي الصيف أتأمل النجوم. وأتخيل نفسي بحارًا كبيرًا يطوف حول العالم. ويعود يقص حكاياه على ساكني الأكواخ من الصيادين، وبائعات "البلومي"*(١٠) و"الشبار" و"البوري" و"القاروص"، و"البط البري"، و"الشرشير"*(١١)، وغازلي شباك "الدبة"*(١٢) و"الطراحات"*(١٣)، و"الجوابي"*(١٤)، وصانعي "الصنار" و"المشابك" من البوص، وبنائي القوارب والقبور. ففي بحيرتنا من يبني قاربك هو نفسه من يبني قبرك. بيد أن قواربنا هي الأخرى قبور تسير بأصحابها في الماء. تلك هي الحقيقة التي أدركتها جيدًا عندما عبرت الطريق للمرة الأولى، وقررت أن أندس وسط الناس لأتأمل حياتهم. فالسلاحف تضع بيضها على الشاطئ، لتدشن حياة صغارها على الأرض ثم يعودون إلى أحضانها في الماء بعد أن يكونوا قد أدركوا الحقيقة. أما نحن فكُتِبَ علينا أن نولد في الماء ونموت في الماء.

---

(١٠) هو سمك بلطي صغير بلغة صيادي البرلس.

(١١) طيور تأتي في أواخر الصيف وفى الخريف على شاطئ المتوسط.

(١٢) احدى طرق الصيد بالتخبط.

(١٣) شبكة دائرية يتم طرحها يدويًا.

(١٤) نوع من فخاخ صيد الأسماك

اقتربت من فتارين الجنة بكل ما فيها من ذنوب، وأخذت اتفرج، وأتفرج، بل ألتهم، وألتهم تفاصيل النساء المبتسمات بودٍ، ونبلٍ، وأناقة، سأختار السمراء التي تقف في دلال هناك -أممممم- دعنا من السمراء الآن لقد سئمت السمار، وسأختار تلك الشقراء التي تعرض مؤخرتها بخلاعة..لا..بل سأختار هذه النحيفة، لا..لا هذه الممتلئة قليلًا، نعم.. نعم سأختار هذه، وهذه، وهذه..وهذه.. سأختارهم جميعًا، أغمضت عيني، وقررت أن أختار من يقع عليها وميضي الأول عندما أهم بفتحهما مرة أخرى بشكل مفاجئ، كيف ترى الدنيا الآن وقد حجبت عنك النور أيها التعيس؟، كيف تعود إلى محافل المتعة وقد فرضت على نفسك الظلام؟ كيف ترى وجهك وقد وهبت نفسك للعدم؟ فأي ظلام يحرمني من تلك الأضواء هو عدم، فتحت عيني فرأيت "كاميليا"، تقطع عليّ أي اختيار آخر ، فقالت مبتسمة:

-البلدي يؤكل.

فحدقت في وجهها مشدوهًا، من أين سقطت تلك المخبولة الحسناء؟، فواصلت قائلة:

-كل اللي في الفاترين ده فالصو.

فسألتها السؤال التقليدي المعهود الذي لابد وأن يُطرَح في أعقاب تلك المفاجآت:

-انتي مصرية؟

فأجابت بلهجة متهكمة :

-طبعًا مصرية جدعة..ونعجبوك كمان.

فأدركت للتو بأنها اسكندرانية من بحري.

كنت لم أفق من صدمتي بعد عندما تأبطت يدي اليسرى، وسارت بي في "بيكال". تشير إلى محلات "السيكس شوب" التي نمر من أمامها وتوجه إليها انتقادًا لاذعًا، وتصف بضائعها من النساء بأنهن ساقطات تجتمع داخلهن أمراض "الإيدز، والزهري، والجرب، والسيلان"، والأدهى من هذا كله أنهن فتيات "باردات" اعتدن على استقبال الطعنات الرجالية من كل جنس ولون، أما هي فلا تمنح نفسها إلا لمن يمنحها الحب ولو لساعات عدة، لذلك فهي تفعل له كل شيء، رمقتني بنظرة طويلة وعلقت عينيها في عينيّ وبلهجة جادة قالت (سأفعل لك كل شيء إذا أحببتني)، حدقت في شعرها الكستنائي الطويل، وشفتيها اللامعتين، وصدرها البارز من بلوزتها القصيرة المعقودة أعلى سرتها، وفخذيها الممتلئين من أسفل الـ" ميكرو جيب"، وفجأة وبدون مقدمات أخبرتني بأنها جائعة، إذًا فلنأكل أولًا ثم نفكر في أمر الحب، فسألتني عمًا في جيبي من نقود، صمتُّ لبرهة وقبل أن أجيب، كانت قد توقفت أمام مطعم "لابيل" (١٥) أو "الحلال" كما ترجمتها لي بالعربية، نظرت إلى فتارين النساء العاريات، وإلى الألوان الحمراء القانية التي تسطع من طاحونة الاستعراض "لومولان غوج"(١٦)

---

(١٥) مطاعم لبيع اللحم المذبوح على الشريعة الإسلامية.

(١٦) ملهى ليلي لشرب الخمر وممارسة الجنس

التي يصطف أمامها حشد كبير من السياح ممن ينتظرون دورهم للدخول إلى صرح الاحتفال بالجسد، وتساءلت مستنكرًا(حلال؟!)، ارتفعت ضحكتها المجلجلة التي طغت على الموسيقى الإفرنجية العابثة، وصوت مروّجي المتعة أمام محال ال "ستريبتيز"(١٧) وهم يعرضون خدماتهم على المارة، (هنا لحم حلال..وهنا لحم حرام..هنا جنة ..وهنا نار) الآن أيقنت لماذا رفض "سمير المالح" مرافقتي في تلك الرحلة، لكنه تركني أتفرج، ربما أجد ضالتي التي فقدتها في ممرات الملح، التي لا ترحم، بل فقط تطلقنا في فضاء شاسع، وتطلب منا أن نسبح، ونسبح، وإلا سنغرق ونموت، فقد حدثنا معلم المدرسة الوحيد، عن عالم آخر، أشار إليه بسبابته على خريطة العالم، ثم نصحني ساخرًا من حلمي الكبير بألا أتجاوز أنفاسي التي تخرج من أنفي الصغير، وإذا أردت أن أسافر إلى أي بلد فلا يجب أن أحلم بأكثر من أن تمس سبابتي مكانه على الخريطة، فالأرض لا تحمل مثلنا، لأننا خلقنا نعشش بين قوالب الماء كطحالب البحر التي لا يمكن أن تتوقف عن النمو، ولا تتوقف عن الموت، ولا تبرح مكانها أبدًا إلا إذا انتهت الدنيا من حياكة ثوبها الأخير، ونعود جميعًا من حيث أتينا.

قدم لنا النادل اللبناني الذي أطلّ علينا بمظهره الفني وشاربه الذي يشبه شارب "إيرول فلين" (١٨) طبقي"الشاورما" البلدي التي اختارتها من قائمة المأكولات، وهو يردد (١٠٠ في المائة حلال.. صحتين على ألبكن)،

---

(١٧) هو نوع من الرقص هدفه إثارة الغرائز الجنسية.

(١٨) ممثل أسترالي من أشهر نجوم السينما في الأربعينيات.

وقبل أن أهِم بالأكل ذكَّرتني بأنني من سيدفع الحساب (٢٤يورو) فأومأت برأسي مبتسمًا، لكنها عادت تذكرني بأنني من سيدفع حساب شامبانيا "فرانسوا" التي تفضلها، وأجرة السكن، والتاكسي، أما هي فستتنازل عن أتعابها لكوني مصريًا، فأردت في تلك اللحظة أن أتحدث وأطرح الأسئلة، لكنها سبقتي وطلبت مني ألا أسألها عن أي شيء، فـ(أنا مجرد فقاعة خمر تطير في الهواء وتنتهي مع ضوء الشمس) هكذا قالت قبل أن تنخرط في الأكل بشراهة.

خرجنا من "بيكال" وتمشينا في أزقة باريس الضيقة، ثم انعطفت بي وسط محلات فاخرة لبيع الكحول، إلا أنها دلفت إلى محل قديم يحمل اسمًا مطموسًا على لوح من الأبلاكاج الباهت، اصطفت داخله قنان من الخمر بعناية فائقة على أرفف خشبية، وطاولات مستديرة من الرخام الرمادي، بينما وقعت عيني على عجوز فرنسي، يملأ فراغه بمعايرة زجاجتين من النبيذ الأحمر، لكنه سرعان ما انتبه إلى وجودنا، فرفع رأسه ليقطع ضوء مصباح خافت يتدلى فوق مقعده الضخم الذي دس فيه جسده خلف "البار"، فبدا وجهه كلوحة فحمية لخيال الظل، كانت قد صفعت أنفي رائحة صادمة لم تزعجني أبدًا، بل زادتني دهشة، حينما مدَّ العجوز يده وسحب زجاجة "الشامبانيا" وناولها لـ"كاميليا" دون أن تطلب منه ذلك، بينما أشارت إليّ وهي تدلك سبابتها بإبهامها كي أخرج النقود التي التقطتها من يدي، ووضعتها بين أصابعه المجعدة، ثم أتبعت ذلك بطلب لبعض الفستق المملح على سبيل الهدية، فنظر إليها مبتسمًا، وتساءل بلهجة مداعبة :

- تمتلكين ملكة جمال الأرض وتطلبين هدية مجانية؟!

"فالشامبانيا" لم تكن فقط ملكة جمال الأرض كما وصفتها أيها العجوز، بل هي ملكة الأرض ومن عليها!، ففي حضرة "الشامبانيا" تذهب هيبة المخلوقات التي قد نحسبها أثقل من فقاعة شمس أحاطت بمدينة من جليد، أو ذرة تراب قصية أرادت أن تسقط كحجر في الماء.

في غرفة كلاسيكية متواضعة، تحوي سريرًا ومنضدة، وكرسيًا هزازًا، ونافذة زجاجية فسيحة، أسدلت عليها ستائر شفافة تحفها شراشف قماشية حمراء، انتفض جسدي عندما انطلقت رغاوي "الشامبانيا" منفجرة من قمقمها، ملأت كأسي عن آخره، بينما تركت نصف كأسها فارغًا، اعتذرت لعدم وجود مكعبات الثلج، فدست جدار كأسها وطمأنتني بأنها بارده بفعل الشتاء، فلم أبد اعتراضي على شتاء يأتي في أغسطس، خاصة أن جسدي كله كان باردًا بالفعل. حملَتْ كأسي وقرَّبَتْه من أنفي وأمرتني بلطف أن أستنشقه بتمعن، فللخمر رائحة، وطعم لا تستوعبها أنوفنا، ولا ألسنتنا إلا إذا فقدنا حاستي الشم، والتذوق، وأغلقناهما على سطوة "الشامبانيا" وفقط، وكانت الرشفة الأولى بالنسبة لي كما الرشفة الأخيرة، لقد أدمنت ملكة جمال الأرض، بالفستق المملح، ولحم النساء، طلبت منها ألا أتمادى في الشُّرب، لأنني أرغب في الاستمتاع بها وأنا في كامل وعيي، فتساءلت ضاحكة وكأنها استمعت إلى قفشة من قفشات الأطفال:

-الاستمتاع بي؟!

وهنا بدأت في خلع ملابسها ببطء شديد، حتى إنه لم يتبقَ على جسدها نتفة خيط واحدة، وقفت متخشبًا، مذهولًا، مشدوهًا، مندهشًا، خائفًا، مرعوبًا، قلبي يدق، وتنحت الدماء جسدي من رأسي حتى أخمص قدميّ

بسرعة فائقة.. لا أدري، حقًا لا أدري، ففي تلك اللحظة لم أكن أدري كيف أنا، أو بما أشعر، فأنا لم أرَ في حياتي جسدًا عاريًا إلا ما وقعت عليه عيني من أجساد لأسماك عارية يخرج بها الصيادون من بحيرتنا كل يوم، فتنهرنا أمهاتنا، وتصفعنا على ظهور أيدينا إذا فكرنا أن نعبث في شرجها..اقتربت مني "كاميليا"، وقبل أن تمد أصابعها لتفض أزرار قميصي سألتها عن اسمها فقالت (صوفيا في فرنسا.. كاميليا في الإسكندرية)، لكنها لم تبادلني السؤال بسؤال آخر عن اسمي.

تحت الغطاء القطني الخفيف، علمتني كيف أقبّلها من شفتها، وأقبض على نهديها، وأطعنها بقوة، حتى إن الدنيا كانت تفتح لي أبوابها مع كل طعنة جديدة أنهال عليها بها، لقد انجرف الخيال الساذج تحت وطأة الواقع، وبت أتلوّى من فرط الشهوة الحقيقية التي تعصرني بشراهة، وتفتح أمامي كوة سحيقة من نار، وكوة شاسعة من نور، فأزيد من طعناتي كلما زادتني هي حياة، أزيد طعناتي كلما أعادت نحت جسدي كله بيديها وطلبت مني المزيد، والمزيد، فتأوهاتها، ورعشاتها، تعطيني إصرارًا غريبًا، يمحو من جسدي فكرة الموت، ويضفي عليه الخلود، فأصبحت كسفينة أطلقها ربانها وتركها تسبح في الماء دون عودة، فـ"كاميليا" هي المزيج الإكسيري من القوة والضعف، من البراءة والشقاوة، من الأنوثة والغواية..أما أنا فكنت قد انتهيت عندما غرست أظافرها في لحمي، وأطبقت على جسدي النحيل بين ساقيها، وهي تطلق صرختها الأخيرة، ملازمة لصرختي الأولى.

صفعني شعاع الشمس العائد من لجة الليل، فأزحت جفوني ببطء شديد، لأستوعب هدير الموج، وصوت النوارس الزاعقة، والطائر المغرد،

لقد اختفى نباح "بحَّار". (أين اختفى "بحَّار"؟)..طرحت ذلك السؤال على نفسي بصوت مسموع، ونهضت مفزوعًا. راكضًا صوب الفنار، لقد سبقتني إليه الشمس، وبات الفنار ليلته مظلمًا. يا إلهي!..كيف يمر ليل دون نور؟. كيف يمر ليل دون نور؟ إنها كارثة كبيرة ستصعد على إثرها الأرض إلى السماء، أو تنطبق السماء فوق الأرض. لقد رحل «نور» وأخذ معه كل طقوس النور، وكل قوانين الأرض على تلك الجزيرة. فالنور سابق لليل، حتى نسلمه للشمس، فلا النور يموت، ولا الشمس تختفي، ولا مكان للحظة سوداء تجثم على رؤوسنا.. يا إلهي!..كيف يغفر لي «نور»، والفنار، والبحر، و"بحّار" هذا الجُرم الكبير بعد أن حرمتهم من الحياة ليلة كاملة؟.. بحّار؟! أين اختفى بحّار؟. لقد انتصر عليّ شيطاني فأضاع الله النور من وجهي، ومن بين يديّ، فبت لا أرى سوى سواد حالك يرسم شبحًا ضخمًا يحلق فوق رأسي، يصفعني ويقفز لأعلى، ثم يعود لصفعي و يقفز لأعلى، وكلما حاولت الامساك به سقطتُ على ركبتيّ كالأطفال، فيضحك عليّا القاصي، والداني، وكل العابرين فوق جدائل النور إلى دنيا لا تشبهني، لكنها تشبه كل من تاب و آمن، وعمل عملًا صالحًا، أما أنا فقد أفسدت على البحر الكبير متعته، وحرمت عرائسه من لحظات الانبهار، التي تمنحهن من الأرض جمالا، ومن السماء هيبة ووقارًا.

وقف راضي يضحك كالأبله، وهو يخبرني بأنني حتمًا سأتعرض للجزاء من الادارة في السويس، بعد أن يكتب تقريره عن تقصيري الشديد وعدم إضاءة الفنار لليلة كاملة، وأن الأمر من الممكن أن يحوّل إلى النيابة العامة، وتتم محاكمتي بتهمة الإهمال، وتعريض حياة الأفراد والممتلكات إلى الخطر. لم أعبأ بما يقوله، ركضت إلى غرفة الماكينات وأدرت الماكينة

"١". والماكينة"٢". والماكينة "٣". وصعدت إلى الفنار وضبطت العدسات، و"الفتيل" وأضأت الفانوس الكبير والصغير، والمصابيح الكاشفة جميعها، ورفعت الآذان، لعل النور يزيح الشمس إلى مكمنها. وأخذت أنادي على "بحّار". أنادي بكل قوة. لكن الأبله ظل يضحك. ويضحك، وهو يهددني بالعقاب المضاعف الذي ينتظرني بتهمة التبديد لأنني أضأت الفنار نهارًا بكامل طاقته. فاقتربت منه ووقفت في مواجهته تمامًا، وحملت قبضة يدي وصفعتها في وجهه، لكنه لم يكف عن ضحكه الهيستيري، فأتبعت الصفعة الأولى بصفعة ثانية، وثالثة، ورابعة. حتى سالت الدماء من أنفه. فتوقف فجأة. تراجع إلى الخلف، كوّر جسده في الجدار، دفن رأسه بين راحتيه، ثم أجهش في البكاء.

* * *

(٤)

العام الستون

:

جلستُ في القارب بين بائعات الخبز المجلوب من رأس البر، والعابرين نحو أرزاقهم في الشاطئ المقابل، والعائدين من السهرات الحمراء، وليالي الحظ، أنتظر حتى تكتمل الحمولة، فأخذت أتأمل مياه النهر المنحدرة ببطء شديد نحو مصيرها المحتوم حيث يبتلعها البحر في جوفه دون ارتواء، فهنا دائمًا ما تكمن النهايات، حتى نهايتي أنا، ونهاية هؤلاء الناس الذين جاءوا لاحتضان الحزن في أعين الثكالى والمكلومين؛ فبين الرحيل، والعودة من الماء يجثم الانتظار، الانتظار الذي يسكن تلك المدينة منذ آلاف السنين مخلفًا وراءه حياة أو موت، لقاء أو افتقاد، فرحة أو بكاء، فراغ أو امتلاء، لكن يبقى الرزق هو الزائر الأبدي الذي تسعى خلفه تلك القوارب، التي تروح خماصًا لتعود بطانًا، محمَّلة بهموم البيوت التي كُتِبَ عليها أن تأكل من خِشاش البحر، لتحيا، وتحيا معها كل قلوب البشر الذين جلسوا في ساحات الانتظار، يرمقون كل من تحط قدماه على الشاطيء، ويشيعون بوجههم عن لحظات خادعة لم تأت لهم إلا بزبد البحر، وعوالقه، فيحملون رزقهم، ويعودون به إلى منازلهم، فالعودة رزق يُشبع رغبة الانتظار، والأسماك رزق يُشبع إلحاح الجوع، و النور رزق يغمر كل فراغات الظلام.

أدار الولد الصغير المحرك وقبض على الدفة بكلتا يديه، بعد أن ساومنا على أن ندفع أجرًا مضاعفًا لتعويض الحمولة الناقصة، وإلا سنجلس في القارب ننتظر ساعات أخرى نتلقى فيها المزيد من صفعات الهواء الصباحية الباردة، فوافقنا على مضض، بينما أخذت أتأمل هذا المستغل الصغير، وهو يدير الدفة ببراعة فائقة، ويوجهها ناحية الشاطئ الآخر بملامح صارمة ونظرات حادة لا تخطئ الهدف ولا تنحرف عن المسار، كان يرتدي سترة جلدية واسعة، وبنطالًا خفيفًا مترهلًا لا يتناسب مع تلك الأجواء الباردة، وحذاءً أسود مطليًا بالطين، يفوق قياس قدمه قياسين أو ثلاثة، لكنه وقف واثقًا من نفسه حتى إنه أرغمني على الابتسام إعجابًا، وبعد دقائق معدودات كنا قد تجاوزنا فيها منتصف النهر، ثبَّت الدفة وأوقف المحرك وجعل القارب يسير بقوة الدفع كي لا يصطدم بالشاطئ فيتحطم على من فيه، وفور وصولنا إلى المرسى قفز بخفة وربط القارب في وتد خشبي، وأمرنا أن نغادر، بعد أن جمع أجرته كاملة على حسب الاتفاق، كان أبوه يقف في انتظاره، فخلع الولد السترة والحذاء ومنحهما إياه، بينما لم تصمت بائعات الخبز عندما قذفهن الرجل مازحًا بالاستغلال، فهم يبيعون الأرغفة المدعمة لأهالي العزبة بضعف ثمنها، وذلك لكونها تأتي من رأس البر، فالخبز في رأس البر له وجه آخر غير الخبز المصنوع للفقراء هنا، وما لبثن حتى رددن عليه اتهامه بعد أن سردن عليه ما فعله ابنه معنا، فاحمرَّ وجهه، وأمره غاضبًا بأن يعيد إلينا الأجرة الزائدة، لكني لم أتوقف، ولم أهتم فما أحمله داخلي من كتل ضبابية سوداء، جعلني أحمل حقيبتي وأقطع الطريق بلا تردد.

حدقت في ساعة يدي ونظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم الصباحية، وإلى حلقات الماء في النهر التي تتسع بفعل قطرات المطر الخفيف، فحدثتني نفسي بأن كارثة كبرى قد حلت في الفنار الآن، لم يكن قلبي مطمئنًا لهذا الرحيل، ولم أثق يومًا في أي شخص آخر يمكن أن يقوم بمهمتي الربانية التي سخرني الله لها، نفضت عن رأسي تلك الظنون السيئة، طالعت الطريق الطيني الممتد الذي يسحبني إلى عالمي الجديد بين البيوت المصطفة في خط مستقيم بعفوية فرضها النهر، فأيقنت أن الدنيا كلها أصبحت بالنسبة لي فنارًا كبيرًا يحتاج إلى من يسهر عليه ويحرس نوره، فبعد أن تلقينا خبر غرق والدي بأيام، زارني في منامي وفتح راحتي الصغيرة وعلق فيها قنديلًا، وأشار بسبابته ناحية البحر، وتركني أداعب الملائكة في فراشي، ثم عاد إليه جاذبًا خلفه خيوط الضوء، حتى غطاه الماء، واختفى تمامًا، فعشت واهبًا روحي وجسدي وحياتي كلها للنور، أضيء به ظلمة قبره الشاسع بعد أن تتخلى عنه الشمس، علني أرى وجهه الذي لم أتذكر منه سوى خيالات متقطعة، تمثلت في صورة تالفة حوتها بطاقته الشخصية، فاعتدت أن أتلصص عليها من حين لآخر بين جلاليب أمي الملونة، المنقوشة بالزهر، والمشغولة بخيوط "السيرما" والخرز، والتي حرمتها على جسدها منذ سكن أبي الماء، وكف عن طرق بابنا ليطعم صغاره.

طرقت الباب لكن أحدًا لم يفتح، فتوقفت قليلاً لأتأمل أفواج الأطفال الذين يحملون صحون الفول المدمس، وقراطيس "الطعمية" التي تطوي بين أوراقها أخبارًا ميتة، وبنظرات مفعمة بالفضول مروا من أمامي، تبرع أحدهم وألقى السلام بلكنتنا البحراوية، فرددت عليه سلامه، ثم توقفوا

على بُعد خطوات، وبعد مداولات هامسة انصرفوا جميعهم ناحية المطر، فالغريب هنا كورقة دوار الشمس الزرقاء التي إذا سقطت في الحمض احمرَّ لونها، فيلتف حوله القاصي والداني فإما يكشف عن غايته الكبرى التي أتى من أجلها أو يخرج في سلام، فالبرج الذي بناه أجدادنا ليحرس النهر من ضربات الغزاة ظل صامدًا، حتى طمست قواعده في الماء، لكنه مازال قائمًا في طبائع الرجال، والنساء، والأطفال، والتراب، والحجار بعد أن لفظتهم الحياة الجديدة بزخمها، وبقي البحر لهم سبيلاً يطلقون فيه أحلامهم وقواربهم الصغيرة، ويعودون منه بمصائرهم المعلقة بين الحياة والموت.

انفتح الباب، فاستقبلتني زوجتي «فادية» بترحاب شديد، وهي تنفض عن معطفي بقايا المطر بيد، وباليد الأخرى التقطت حقيبتي الثقيلة، وظلت تجرجرها حتى وصلت بها داخل غرفتنا، حدقت في وجهي طويلاً وكأنها لم ترَني من قبل، فارتبكتُ قليلاً عندما أرخيت جفوني لأهرب من عينيها، وبعد لحظات صامتة، أزاحت باب دولاب ملابسنا المخلوع وأسندته على الجدار، جذبت "جلابيتي" الشتوية، وغيارًا داخليًا، وبَشكيرًا كبيرًا، وصابونة معطرة، فسألتها عن «جابر» وزوجته، و «سميحة» وزوجها، وأولادهما، لكنها لم تجب، أو أنها أجابت بكلمات روتينية مرت على مسامعي مرار الكرام، كانت قد ذهبت لتسخين ماء الاستحمام، وتجهيز الفطار، وإيقاظ «جابر» بينما وقعت عيني على حفيدتي التي نقلتها على الكنبة الجانبية تحت النافذة الخشبية، فأعدتها إلى السرير، ومددت جسدي المتهك جوارها، بعد أن طرحت الغطاء

فوقنا، ودفنتُ راحتها الصغيرة في راحتي، وذهبت إلى نوم عميق ينتظرني منذ أن أسلمت روحي لشاطئي الأخير.

وزعت «فادية» بعض أواني الطبخ الفارغة تحت الثقوب التي يتسرب منها ماء المطر من سقف المنزل، لكنها لم تستطع أن تمنع القطرات التي تتساقط في صحون الغداء، كانت «سميحة» قد أتت مع زوجها وابنتها من "الرطمة" لتطمئن عليَّ، أما «جابر» فيسكن مع أولاده وزوجته في غرفتين من البيت، والغرفة الثالثة لي ولأمه. جلسنا جميعًا على الطاولة الخشبية التي صنعتها من خشب "التوت" لأتناول عليها الطعام خلال زياراتي القصيرة إلى هنا، بعد إصابتي بخشونة المفاصل، التي أجبرتني أن أجلس للطعام كما يجلس أولاد "الذوات" وأغادر الأرض التي منها أتينا، وإليها نعود، قشرت سمكتي، وبدأت باحتساء شوربة "الصيادية" قبل أن يتحدث «جابر» متسائلًا:

-وناوي تعمل إيه يابا؟

لكن «سميحة» وخزته بكوعها وخزة تلقائية سريعة، وقطعت كلامه قائلة:

-منور يابا..العيال دايمًا بيسألوا عنك..إنت الخير والبركة يابا.

لكني لم أنتبه لكلامها، وتركت الملعقة من يدي، وأزحت صحن "الصيادية" للأمام وعلقت بصري في وجه «جابر»، وأجبته بصوت متقطع:

- هاكل..وأشرب زي البهايم.. وأقعد في البيت زي النسوان.. أستنى الموت.

فأحنى رأسه على صدره وسط دعوات متناثرة من أفواههم (بعد الشر..الله يطول في عمرك) لكنه وحده من ظل صامتًا، حتى سألته عن المركب الذي يقوم ببنائه، فأخبرني أن المركب مازال فوق "الأزق" في "الطابية" ويحتاج إلى "كوارتة" (١٩)، وتلويح، وماكينة، ورفاس، وبوصلة، وثلاجة، وأدوات، ودهان، وشراء رخصة)، لكن "الريس صلاح حداد " أوقف العمل، لحاجته الشديدة إلى دفعة من حسابه، يسدد بها يوميات العمال، لأن حال البلد توقف تمامًا بعد الثورة، والأسعار كل يوم في زيادة، فرفعت رأسي إلى الثقوب المنتشرة في السقف الخشبي، وعدت إلى طعامي.

اليوم أشعر بأن أمي معنا، بل روحها معنا بالفعل تبتسم لنا، وتداعب أحفادي وتدعو لهم بالبركة، والهداية، وكفاية الشر، وتخرج من صدرها كيس النقود وتعطيهم لشراء الحلوى، اليوم أشعر وكأنني عائد من الأسر بعد أن كنت في عداد الغائبين المرجى عودتهم، فمن يخرج إلى البحر ولا يعود نظل في انتظاره كما ننتظر الرزق، لم تكن قطع الشكولاتة الأربع، وخطاب عبد الناصر هما الأمانة التي حملتها إلى أولاد «طه عزيز» وفقط، بل حملت إليهم الأمل، فـ «طه عزيز» غاب في سجون العدو، ولم يمت، وأبي غاب في البحر، ولم يمت، أما أنا فقد عدت حيًا حاملاً بشارة البقاء بعد غيابي الطويل، فلا خروج من مدينتنا إلا لبحر وقبر، لذلك اختار النهر أن ينتهي هنا ليدفن رأسه عند الخط الأزرق الذي يفصلنا عن

---

(١٩) أرضية المركب الخشبية.

سواد الأرض، لنعيش دائمًا في مواجهةالعالم الآخر بين الشمس والقمر والنجوم والماء، والملح والعذب، والحياة والموت.

لقد خرجت بـ«جابر» ولدًا من تلك الدنيا، لكن غيابي الطويل حرمني من أن أزرع داخله النور الذي أهداني أبي إياه، فخرج «جابر» غير قانع برزقه ليبحث عنه في بلاد أخرى، ثم يعود محمَّلًا بالهدايا والياقوت والمرجان، لكنه لم يكن يعلم أن الغربة تميت القلب، وتقطع سبيل العودة إلى الأرض حتى لو عاد ألف مرة، فهو قد غاب دون انتظار، ودون بر وبحر يحملانه من جديد، لذلك كان عليَّ أن أسد ثقوب البيت، التي تؤرقنا وتسلبنا متعة المطر، قبل أن ينهار علينا السقف، ونصبح جميعًا في العراء، فالبيت الذي نلوذ إليه كما تلوذ السفن الضالة إلى الفنار، صار غاضبًا من كل أفعالنا، ويريد أن ينهار فوق رؤوسنا، كي نعود كما كنا، نمد أيدينا لمن لم يجد عليه البحر في تلك الليلة، ويمد هو لنا يده عندما يستعصي علينا الرزق في ليلة أخرى، لابد وأن نبحر في الحب، كما نبحر في الماء، ونعيش نبتسم كما تبتسم الأسماك رغم وقوعها في شباك الصيد، لكن كيف لي أن أستبدله ببيت آخر، ومن غاب لم يعد بعد؟، فهنا من يأخذ البحر أباه، أو أخاه، أو ابنه، لا يستبدل بيته ببيتٍ آخر أبدًا، ولا يغير معالمه أبدًا، ولا يغلق بابه أبدًا، لذلك يجب أن يبقى كل شيء على حاله، لابد وأن تختفي كل الشقوق، والثقوب، ونقيم أعمدة تحمل تلك الجدران من جديد.

جلست مع ابنتي «سميحة»، وزوجها «حامد» نحتسي الشاي، فشعرت بأن كلامًا يذوب على شفاهيهما، قبل أن يخرج للحياة، فظلت «سميحة» تلف وتدور عن تدني المعيشة في "الرطمة"، والبلطجية الذين يسلبون

الناس في وضح النهار، وانتشار جرائم القتل، وتجارة المخدرات، وأنها تعيش في رعب دائم على بناتها، وتفكر جديًا هي وزوجها في شراء شقة في مدينة دمياط الجديدة، ولكن هناك مبلغًا من المال ينقصهما لإتمام الشراء، فحدقت في وجهها مليًا، ورفعت رأسي إلى الثقوب المنتشرة في السقف، ثم سحبت رشفة طويلة من كوب الشاي، وشردت بعيدًا، فأين أنا من كل تلك الحسابات والأرقام؟ فأنا بالنسبة لهم كتلك الثقوب التي لم يعبئوا بوجودها، فاعتادوا عليها كما اعتادوا ألا أكون في حسبانهم، فأنا الغائب دائمًا الذي عاد ليزاحمهم أماكنهم التي لا تتسع لغيرهم، انتبهت على صوت «جابر» المحتد عندما دخل يتشاجر مع أخته وزوجها لانفرادهما بي، فـ «جابر» يريد أن يأكل الكعكة كلها دون شريك حتى لو كان أنا، و«سميحة» تريد الكعكة ومن عليها، أما «فادية» فكانت ما تزال مشغولة بتوزيع أواني الطبخ تحت الثقوب، غادرتُ الغرفة واتجهت صوب أحفادي لأجلس بينهم وهم يتقافزون ويغنون للمطر.

خرجت من المسجد بعد انتهاء صلاة الجمعة، فرأيت "الريس صلاح حداد " يقف مع مجموعة من الصيادين المتجمهرين أمام مجلس المدينة، ويحملون لافتات يطالبون فيها بحقوقهم، فلافتة تطالب بالتأمين الصحي، ولافتة تطالب بوحدات للإنقاذ السريع، ولافتة تطالب بدوريات للتفتيش الليلي، ولافتة تطالب بمعاملة الصيادين معاملة آدمية، ولافتة تطالب بتوسيع البوغاز، ولافتة تطالب بفتح التراخيص للمراكب، ولافتة تطالب بالقضاء على الفساد، ولافتة تطالب بالعدالة الاجتماعية، ولافتة تطالب...ولافتة تطالب...وتطالب...وعلت الهتافات ضد جمعية الصيادين، ومجلس المدينة، والحكومة، والمجلس العسكري، يقولون

بأن ثورة قامت في مصر، ومازالت الناس تهتف في شوارعها ضد الحكومة؟! أتعجب من أمر ثورة قامت وتحتاج إلى ثورة أخرى لتنتهي.. وقفت أتأمل الصيادين الثائرين، وأنظر إلى أفواههم التي لا تكف عن الهتاف، فتذكرت ما قصه عليَّ صيادٌ عجوز كان يسكن "الطابية " القديمة بعد أن غرق قاربه بأولاده الأربعة، فهجر البحر، وزهد الحياة، وأصبح يعيش على ما يجود به الناس عليه من طعام وشراب، بأن تلك "الطابية"، بناها الفرنسيون، بعد أن أمد "الشيخ حسن طوبار"(٢٠) الصيادين والبحَّارة بالسلاح، فانقضوا على الحامية الفرنسية، حتى أبادوها عن آخرها، فعلم قائدهم "الجنرال فيال" بما حدث فهاجم المدينة، وهدمها لينتقم لهيبتهم العسكرية، وبنى تلك "الطابية" على أنقاضها، ولكن ماذا تبقي من الفرنسيين؟، اختفى الفرنسيون، وظهرت أكواخ الصيادين من جديد، تقاوم كل غريب يقترب من النهر، حتى كانت "هوجة عرابي" التي أتى قوادها وتحصنوا بـ"الطابية" لمواجهة الإنكليز في البحر قبل أن يتسللوا إلى المدينة، ورحل الإنكليز، وبقيت المدينة وأهلها، وبقيت "الطابية" تحمل اسم "عرابي" رغم هزيمته في التل الكبير، وستبقى تلك الأفواه تهتف بحقوقها وتجوب بها الشوارع حتى قيام الساعة.

---

(٢٠) هو زعيم إقليم المنزلة بالدقهلية وبطل من أشهر أبطالها وهو أكبر شيوخ المنطقة له مكانته في نفوس أهالي الإقليم ، ينتسب إلى أسرة عريقة تولوا مشيخة المنزلة مئات السنين ، وفي أوائل أكتوبر عام١٧٩٨ شرع حسن طوبار في مقاومة الفرنسيين منذ بداية الحملة، وجهز من ماله الخاص الأسطول البحري الذي حارب الفرنسيين في البحيرة، وأوشك على إخراجهم من دمياط.

على المقهى برر لي "الريس صلاح حداد " توقفه عن العمل في مركب "جابر". بحاجته الشديدة إلى المال، ورغم أن ما تبقى من اكتمال بناء المركب ليس بالكثير، إلا أن «جابر» قد توقف عن الدفع لانشغاله بأمور أخرى غير الصيد، لم أكن أفهم ما يقصده بأمور أخرى، لكنني لم اطمئن لملامح وجهه المفعمة بالحسرة، خاصة بعدما أخبرني بأنه سيسافر إلى قبرص للعمل في صيانة السفن، فهناك الحياة أفضل، والإمكانات مهولة، والأجر ضخم (واكل ..شارب..نايم.. وبحصل كل شهر ١٥ ألف جنيه)، أما هنا فكل شيء يسير ببدائية شديدة، بداية من المسمار، وانتهاءً بـ"الأزق"(٢١)، وكأننا مازلنا في العصر الحجري، فالحكومة تتلذذ بوضع العراقيل أمامنا لإنشاء ميناء للصيد، وأحواض للصيانة، وتصر أن تلقي أمام سفن الأجانب الواردة إلينا لعمل الصيانة ألف ورقة، وورقة، وألف سؤال وسؤال (ده ليه؟.. وعشان إيه؟..ومنين؟ وفين؟) فأصبح من الأسهل أن نذهب إليهم، ولا يأتون إلينا، وفي النهاية تقول الحكومة (أجيب منين.. إذا كانت الحكومة مش قادرة تجيب الخير للناس، فاحنا هنجيبولها من حنك السبع..بس هي تسيبنا نشتغل بقى)، قال تلك الكلمات غاضبًا، لكنه عاد إلى هدوئه، وطمأنني بأنه لن يسافر قبل أن ينتهي من مركب «جابر» ويقذفها بنفسه من فوق "الأزق" إلى الماء، فوعدته بدُفعة جديدة من أجره فور استلامي مكافأة نهاية الخدمة الأسبوع المقبل، وأن «جابر» سيسدد له المبلغ المتبقي، فنظر إليّ متسائلًا بلهجة شابها التعجب:

---

(٢١) أداة بدائية تستخدم لتدشين السفن في البحر.

-طلعت معاش ..ياعم نور؟!

فأجنيت رأسي على صدري، ولم أنبس بكلمة واحدة.

لم يكن صوت "أسمهان" (٢٢) الذي يأتيني من الراديو بأغنيتها الصباحية المبهجة "أهوى" ما جعلني متمسكًا بتلك اللحظات متمنيًا ألا تمر، بل كانت «فادية» بنظراتها، وابتساماتها التي تذكرني بابتسامات القديسين هي من منحني ذلك الإصرار على مواصلة الحياة، في وقت بت أشعر فيه بأنني أصبحت فارغًا، مجرد فراغ يسبح فيه الغبار. مدّت يدها إلى جبهتي ودستها برفق، وهي تناولني كوبًا كبيرًا من عصير الليمون. فنزلات البرد لم تعرف لي طريقًا قَط رغم حياتي الطويلة التي قضيتها أمام الماء، والرياح، والبرد، والصقيع، ولفح الحر، ورذاذ المطر، لكن يبدو أن جسدي قد استسلم للمرض منذ أن فقد حصانة النور، لقد انتهيت. شعور يأسرني للمرة الأولى، بأنني قد انتهيت بالفعل، وأصبحت كذكر النحل الذي يستمتع بتلقيح مليكته للحظات ثم يموت، لقد اختفى صوت "أسمهان"، كما اختفت روحها هنا في هذا النهر، لكنها ظلت الأسطورة الكبيرة التي طغت على كل أساطير البحر الكبير. كنت أشعر ببرودة شديدة، لكن «فادية» تقول إن جسدي كتلة من نار، رفضت تناول أي عقار، فأنا الذي لم يذهب إلى طبيب قَط لابد وأن أقاوم، بعد أن طردني عامي الستين من الفنار، لعنة الله على العام الستين.

---

(٢٢) مغنية وممثلة سورية / مصرية. اسمها الحقيقي «آمال الأطرش» وهي شقيقة الموسيقار فريد الأطرش، وقد توفيت في ظروف غامضة عام ١٩٤٤ حين كانت تتجه إلى رأس البر بينما سقطت سيارتها في ترعة طلخا بينما أشيع بين العوام في دمياط بأنها قد غرقت في النيل.

ساعات مرت وأنا أهذي، بل أسترجع كل الصور التي فقدتها منذ زمن طويل، أتفرج وأتفرج وأتفرج، لكن تبقى صورة واحدة أشيح بوجهي عنها ولا أريد أن أراها، صورة سوداء تمامًا يقفز منها وجه ضاحك.. يخرج لي لسانه عن آخره، ويسخر من كل أيامي الماضية، أصغيت إلى آذان الفجر حتى انتهى، حاولت أن أنهض من فراشي لأتوضأ لكن شيئًا ما كان يجذبني إلى أسفل لألتصق في الفراش، هممت بأن أنادي على «فادية» التي كانت تستلقي على الكنبة "الأسطنبولي" أسفل الشباك الجانبي للغرفة، لكن صوتي أبى أن يخرج، فنظرت إلى السقف الخشبي، وقررت أن أتيمم بالغبار العالق في الفراش كي أؤدي صلاتي بعينيّ بعد أن فقدت القدرة على الحركة تمامًا، فلم يكن لـ"يونس" اختيار آخر إلا أن يقفز في بطن الحوت ليكفِّر عن ذنبه، ولم تكن له حيلة أخرى إلا الدعاء كي يلفظه الحوت على الشاطئ، فسبحانك ربي إني كنت من الظالمين.

أفكر في أمر السفر إلى السويس لإنهاء إجراءات صرف مكافأة نهاية الخدمة بعد أربعين عامًا من العمل المتواصل، لكن ينتابني شعور غريب بأنني سأذهب لبيع كل ما عشته من أيام، وليالٍ قضيتها حاملًا النور، فالمكافأة دائما هي النهاية التي تفقدنا لذة العطاء، لذلك كنت أدفع قدمًا، وأؤخر الأخرى، ولم أحسم موعد السفر بعد، فجسدي رافض للتعافي، ويصر أن يظل ممدًا ومسترخيًا، ونافرًا من استعادة قوته، لأنه لا يريد أن يواجه النهاية الأخيرة التي ستجعل منه كيانًا متنطعًا يبحث عن ركن في مقهى يمارس فيه الثرثرة، إذًا فيجب أن أسافر اليوم قبل الغد لأضع نفسي في المواجهة، فوقوع البلاء يرحم من عناء انتظاره، نعم المكافأة هي البلاء الذي سيقصم ظهري، ويحولني إلى كتلة هلامية عديمة

الفائدة، ويحكم عليَّ بالموت كخيل الحكومة. أخبرت «فادية» بقرار سفري، فذهلت، بل امتعضت، فكيف أسافر وأنا ما زلت لم أتعافَ بَعد؟!، فجسدي أصبح كلوح زجاج، ينتظر حجر صغير يرتطم به فيتهشم، ذلك كان وصفها الذي أتحفتني به، لكنني كنت قد حسمت قراري بأن أسافر في الصباح، فأنا لا أريد أن أعيش في هذا الدور أكثر مما ينبغي، لذلك كان يجب أن أقيم جسدي رغمًا عنه، وأعود كما كنت أصهر ضوء الشمس بين جفوني، وأحجب نور القمر بطرف إبهامي.

في فراشي طلب حفيدي «أحمد» بن «جابر» وأخته «أمل» بأن أحكي لهما حكاية، لكني لم أكن أعلم أن حكايات "الشاطر حسن" وأميرته الجميلة وحصانه الأبيض، وأمّنا "الغولة" التي تأكل الأشقياء، و"ليلى" والثعلب المكار، قد احترقت في عقول الصغار، فلم تعد مبهرة تلك القصص المثالية الساذجة بالنسبة إليهم، لذلك كان يجب أن أبحث لهما عن قصة مذهلة أحقق بها آمالهما التي علاقاها بخيالي في تلك الليلة، فكرت للحظات وقلت لنفسي لابد وأن تفتش في البحر عن حكاية قديمة تحفظ بها ماء وجهك يا «نور»، فتذكرت أسطورة "النجار الفقير" التي اندثرت ولم يعد يرددها الكثيرون، ولم تعد تخطر على بال أحد إلا إذا تعمدت نبش كتاب الأساطير.

كان يا ما كان.. يا سادة يا كرام.. وما يحلو الكلام إلا بذِكر النبي "عليه الصلاة والسلام"(٢٣)..

---

(٢٣) قصة متداولة غير معلومة المصدر.

في يوم من ذات الأيام جاء إلى مدينتنا أحد الأمراء من ذوي المال والجاه والثراء، وطلب من نجار عجوز أن يبني له مركبًا ضخمًا لم تشهده عين من قبل، ولا من بعد، وحدد له ثلاثين يومًا لينتهي، فإذا صنع له ما أراد ونال إعجابه، سيتزوج ابنته ويمنحه قصرًا كبيرًا، وأموالًا لا تحصى ولا تعد، ولكن إذا لم ينته في الموعد المحدد سيكون السجن جزاءً له. فأخذ النجار يعمل ليل نهار، يشق الأخشاب، ويقيم العيدان، ويشد الأربطة، ويركب الألواح، حتى اقترب الموعد المحدد، ولكنه لم ينجز من المركب إلا نصفه، فجلس على الشاطئ يفكر في حل لتلك المصيبة التي ستقع فوق رأسه بعد أيام، وإذا به ينعي حظه حتى جاء طائر وخطف منشاره وألقاه في النهر، فأخذ يبكي على ضياعه، مما رق له قلب جِنيَّة كانت تراقبه غطست وخرجت بمنشار من الذهب سألته: هل هذا منشارك، قال النجار: لا.. عادت وغطست وأخرجت منشارًا من الفضة، وسألته: إذن هذا منشارك ولكنه قال لا.. غطست وأخرجت المنشار الحديدي الذي ما إن رآه حتى صاح.. هذا هو منشاري.. فكافأته على أمانته وأعطته منشارًا مسحورًا ليتمم به صناعة المركب في الموعد المحدد لينجو من السجن ويعيش في النعيم، ففرح النجار وراح يعمل بجد حتى انتهى من بناء مركب الأمير، وظل ينتظر قدومه، لكنه لم يأت، مرَّ شهر..شهران..ثلاثة أشهر..مرَّ عام كامل والأمير لم يأت، حتى جاء يوم ضاق فيه الحال على أهل المدينة، فجف زرعهم، واسودت أرضهم، وانعدم طعامهم، وشرابهم، فذهبوا إلى النجار الفقير يستطعمونه، فأشار إلى مركبه الكبير وقال لهم: انزلوا إلى البحر تجدون طعامكم، فدفعوا المركب في الماء، وشدوا القلع، وأداروا الدفة، ونصبوا المجاديف، وطرحوا الشباك، وراحوا يلتقطون رزقهم، ثم عادوا بعد أربعين ليلة محملين بالرزق

الوفير، فأكلوا وشربوا، وأطعموا أطفالهم، فعم الخير المدينة، وتفتحت أزهارها، واخضرت أرضها، وأصبح الصيد هو مهنتهم الجديدة التي فتحت لهم الأبواب المغلقة نحو الكنز المغمور تحت الماء، فصنع النجار الفقير لهم مئات القوارب بمنشاره المسحور فراجت صناعته، وكثر ماله، وتبدل حاله، فبنى قصرًا، كبيرًا، يسكنه من الخدم ألف، ومن الحشم ألف، ومن الجواري ألف، ومن الفرسان ألف، وجاء الأمير الغائب وأخذ سفينته، وتزوج ابنته، وأنجب منها صبيان وبنات وعاشوا في تبات ونبات.. توتة توتة انتهت الحدوتة.. نام الحفيدان قبل أن تنتهي الحكاية، لكنني ظللت مستيقظًا، أتأمل وجههما، حتى غلبني النوم، فضممتهما إلى صدري، وجذبت الغطاء، لأطهر روحي بأنفاسهما البريئة.

انتهى حفل التكريم الذي أعده لي زملائي داخل مقر الهيئة في بور توفيق، وسلمني الرئيس شهادة تقدير، و"مجسم" خشبي لفنار صغير حُفِر عليه اسمي «نور»، هنأوني، وشدوا على يدي، وصفقوا لي بحرارة ثم انصرفوا إلى عملهم، وبقيت وحيدًا، علقت حقيبتي في كتفي، وتأبطت الفنار وضممت الشهادة إلى صدري، وسرت في الممر الطويل بين صور قديمة تحمل تاريخ الموانئ في مصر، صعدت إلى الدور الثالث حيث يوجد قسم شؤون العاملين، ابتسمت لي الموظفة بلطفٍ وطلبت مني أن أضع توقيعي على بعض الأوراق، ثم أعطتني ورقة صغيرة كي أصعد بها إلى الحسابات لاستلام "الشيك". كانت الهيئة كلها تعرف من هو «نور» فاسمي يتردد في كل مكان أمر عليه، أو أدخل فيه، أو أخرج منه، أو أصعد أو أهبط إليه، (نور..نور..نور)،

ومن لم يعرفني فقد سمع عني، ومن سمع عني لا يترك قصتي تعبر بسلام بل يظل يسأل ويسأل حتى يحفظها عن ظهر قلب، فأنا الذي أتيت إلى تلك الدنيا كي أبقى مجرد حكاية رائعة يكتبها شخص ما، يضيف إليها من خيالة ولا ينقصها أبدًا، وفي النهاية أظل «نور» دون زيادة أو نقصان.

أشار لي موظف قسم الحسابات إلى الخانة التي سأضع فيها توقيعي على استلام "شيك" مكافأة نهاية الخدمة، وأخرج لي "شيك" آخر يتعلق برصيدي في صندوق الزمالة، ثم نصحني برفع قضية كي أنال حقي من رصيد الإجازات، ابتسم ابتسامة غريبة وهو يناولني "الشيكين" قائلًا بلهجة شابها القليل من الأسى:

-مبروك يا عم نور.

أمسكت بـ"الشيكين" في يدي، وحدقت في وجهه طويلًا وربتُّ على كتفه، ثم تأبطت الفنار الصغير وانصرفت. مائة وعشرون ألف جنيه وخمسون قرشًا كانت نهاية لحياتي هنا، وثلاثون ألف جنيه هي ختام لزمالة بدأت في سجون الأعداء مع «طه عزيز» وانتهت مع "عادل" البحار التائب، سمعت نباح «بحَّار» في تلك اللحظة، «بحَّار» الذي اعتدت أن أقتسم معه لقمتي، واعتاد هو أن يمنحني العزلة النبيلة، فآن لي أن أمنحه ما يستحق، بأن أذكِّره دائمًا، بعدما آثر البقاء في النور، ورفض أن يرحل معي إلى عوالم الرماد.. لقد أنهيت حكايتي القديمة الآن بعد أن انتهيت للتوّ من كتابة فصلها الأخير على صفحات من ماء، كي تبقى في ذاكرتي وحدي، دون أن يطَّلِع عليها الآخرون، فما أجمل أن تعيش حكاية من صنعك وتبقى داخلك دون أن يطَّلِع عليها الآخرون، وما أجمل أن تصنع قاربًا تنقذ به العالم من طوفان لا يعلم بقدومه إلا أنت.

حذرني موظف البنك من اللصوص، والبلطجية، وقُطاع الطريق، الذي انفجر بهم "دمل" الفساد بعد الثورة التي قامت، ثم قسّم لي النقود في كيسين وقال لي مازحًا:

- حطهم بين جلدك وحزامك يا راجل يا طيب.

شكرته بشدة، ووضعتهم في حقيبتي وانصرفت باحثًا عن تاكسي يقلني إلى موقف سيارات الأجرة، لكنني تراجعت عن فكرة التاكسي وقررت أن أتمشى، فقد اشتقت إلى أن أدوس الأرض، وألقي بنفسي بين وجوه الناس، لأشعر بأنني قد أصبحت واحدًا منهم بعد أن ألقيت من يدي راية النور وتحولت إلى إنسان عادي جدًا، يأكل، يشرب، ينام، يقضي حاجته، يضحك، يبكي، يبتسم، ينافق، يكذب، يحقد، يشعر بالبرد، يشعر بالحر، يمرض، يموت، يموت، يموت.

جلست على المقهى لأستريح قليلًا، قبل أن أواصل رحلتي القصيرة، وضعت حقيبة النقود أمامي، وأسندت الفنار الصغير جوارها، ثم أثقلت الجانب الآخر، بثقوب البيت، ومركب "جابر"، وطموح "سميحة"، ووفاء "فادية"، ومستقبل أحفادي وما تبقى لي من العمر، وظللت أنتظر إلى أين ستتوقف كرة الرهان؟، فلم يكن عندي رقم مفضل للحظ يومًا ما، ولم أسمح لحياتي كلها أن تدخل رهانًا كهذا، فمن يقضي عمره منتظرًا ما يقذفه عليه البحر لا يحتاج إلى رهان، بل يحتاج إلى أن يقتل كل ظلام الأرض، فحملت الحقيبة والفنار، وواصلت السير، بعد أن أيقنت أن كرة الحظ قد توقف عند أرقامهم جميعًا وتركتني أنا، وثقوب البيت للعبة أخرى.

* * *

(٥)

ممرات الماء والملح

اصطحبني «راضي» إلى غرفة مهجورة خلف الفنار، وطلب مني أن أقف في الخارج قليلاً ريثما يطالعني على شيء ما، لكنه سرعان ما عاد وجذبني من يدي إلى داخل الغرفة الصخرية التي عششت قشور الملح أسفل جدرانها، وخيوط العنكبوت بين زواياها، لم يكن هناك إلا منفذ وحيد فتح بعشوائية مبهرة في جدار جانبي، ليفسح الطريق أمام شعاع شمس استقر على خرقة قماشية بيضاء انتصبت في منتصف الغرفة لتخفي داخلها شيئًا ما، وبحركة فجائية خاطفة، أزاح الخرقة القماشية فبان لي"«نور» بكل تفاصيله، نظارته، وجهه ابتسامته النادرة، لكن سيجارة كان يحملها في فمه، بينما لم أعهد «نورًا» مدخنًا قَط، فالتفتُّ إلى «راضي» وقبل أن أعلق بكلمة واحدة، أخبرني بفخر غريب بأنه من صنع هذا التمثال الذي امتدحه بكلمة "رائع"، ثم امتدح نفسه بكلمة "فنان"، وقفت مذهولًا مما أرى، فكيف صنع هذا بكل هذه الدقة المتناهية؟، حتى أنه خُيِّل لي من الوهلة الأولى بأن«نور» يقف أمامي بالفعل، اقترب منه وتوقف جواره والتفت نحوي وقال بعينتين زائغتين:

- أنا أنحت البشر وأعطيهم مما أحبه أنا.

نزع "الأزميل" المغروس في رأس «نور»، وسحبني من يدي إلى غابة من أشجار لم أرَها من قبل. كانت كل شجرة تحمل وجه «نور» بدقة متناهية. وكأن يدًا واحدة هي من صنعت كل هذا في وقت واحد، وفي لحظة واحدة. كانت الغابة كلها تضمخ برائحة دخان الحشيش، وبوجه نور، ووجه آخر صغير لم يكتمل بعد.

صعدت إلى الفنار لأجهزه لاستقبال الليل المقبل بعد زوال الشمس، كانت الرياح تصارع " الراية" على الساري ، حتى تخلى عنها وثاقها وطارت بعيدًا، ثم سقطت في الماء، لم أسقط أبدًا في الماء رغمًا عني، فقد كنت أمخر بـ"سمبكي" الصغير(٢٤) بين ممرات الملح وكأنني حلم يمد ذراعيه ليحتضن البحيرة بكل ما فيها، أرتدي مريولي الرمادي وأضع حقيبة كتبي بين كتفيّ، وأخرج من كوخنا أقبل يد أبي الجالس على "المصطبة" يغزل شباك "الدّورة"(٢٥) و"اللقافات"(٢٦)، و"الجوابي". تفتح أمي النافذة لتزفني بدعواتها، ونصائحها، وتعليماتها المعتادة، قبل أن أقف على رأس قاربي، لأدفعه ببوصتي الطويلة إلى الأمام، تجاه المدرسة، أصف قاربي في ممر الماء جوار عشرات القوارب التي أتت من كل الجزر المجاورة، وأصطف أنا جوار عشرات التلاميذ، نضرب أقدامنا في الأرض، ونسمع الموسيقى، ونردد النشيد الوطني، ونُحيي "العَلَم" ثم ننتشر في الفصول،

---

(٢٤) قارب صغير يسع لشخص واحد

(٢٥) شباك تتخللها عيدان بوص وتنصب للصيد على شكل دائرة

(٢٦) قارب شراعي على شكل عظمة كابوريا في بحيرة البرلس.

يجلس كل منا جوار الآخر، تجمعنا لغة واحدة، ومهنة واحدة، ورزق واحد، ورائحة واحدة تنفذ من أفواهنا وملابسنا، وملامح عقدها الماء بين قسماتنا ومآقينا، وأناملنا النحيفة، التي تنتهي بأظافر تراكمت تحتها بقايا الطين والملح، أرسم بحارًا فوق سفينة، أكتب حرفًا، رقمًا، وأغني، ثم أعود من حيث أتيت .

خلعت مريولي وعلقته على مسمار يبرز من الجدار، وارتديت الصديري، وقبعتي الدلو، ثم وضعَتْ أمي في جيبي قبضة سكر، لأغير بها طعم فمي كلما جف ريقي من هبو الملح، بينما ناولني أبي "جوبيا" فارغة لأرقدها في الماء في مكان لا يعلمه إلا أنا، وهو يسألني عن المدرسة، ودروسي الجديدة التي درستها، اطمأن لهندامي، وشدَّ على يدي بقوة، ثم عاد إلى مصطبته ليواصل غزل، وترقيع الشباك، انطلقت بقاربي متجهًا إلى حقول الملح، كنت قد رقدّت "الجوبيا" في وجه التيار جوار حلقة من البوص الأخضر، لأعود إلى انتشالها بعد انتهائي من العمل في الأرض البيضاء، كما يطلقون عليها هنا، فهي أرض ليست بالجليد، وليست بالحليب، بل هي أرض قاسية، تأكل الجلود، وتنخر الأنوف، وتذبح الصدور، لكنها في النهاية تجود علينا بالرزق، كما يجود البحر.

ماذا لو سقطت حبة سكر بين تلال الملح؟!

سؤال ظل يلح عليَّ كلما باغتتُ لساني الجاف بحفنة سكر، فشرب الماء بين تلك الحقول يزيد العطش، والتوقف عن العمل قبل أن ننتهي من تعبئة كوم الملح الأخير يجلب النحس، لذلك كان يجب ألا أرحل قبل أن أطمئن بأن كل شيء على ما يرام، فتلال الملح حتمًا تطرد الشياطين أما إذا أهملت فإننا لن نسلم من لعنتها، أخبرني أبي يوم أتى بي إلى هنا بأن

التعساء وحدهم هم من منحوا تلك الأرض ملوحتها بعرقهم، ودموعهم، وأجسادهم التي تحللت عقب الموت، أما الأغنياء فقد خلقوا ليتذوقوا فقط..حلو، مر، مالح، حامض، كل شيء، لذلك فالكل هنا اعتاد أن يخلع نعليه تقديسًا لأصحاب تلك الحقول البيضاء الممتدة.

انتشلت "الجوبيا" من مرقدها، فأضاء "الشبار" الفضي الذي يتقافز داخلها حزنًا، فرحًا لا أعلم، خلصته من بين الشباك، ووضعته في مقطفي الخوص المفروش بعيدان البردي، دون عدّ حصيلة الصيد، فإحصاء الرزق يُذهِب البركة. وصلت إلى كوخنا، فرأيت أمي تجلس أمام الفرن البلدي تُخرج خبزًا ناضجًا، أما أختي وبنات الجيران، فجلسن خلفها يضربن العجين بأناملهن على "المطارح" الخشبية، وضعت مقطف "الشبار" و"الجوبيا" الفارغة جوار أبي، ووقفت أتفرج، فالجائع في كوخنا لا يبوح بجوعه أبدًا لكن سرعان ما تكشفه عيناه، انتبهَتْ لي أمي ودون أن تتكلم ناولتني رغيفًا طازجًا- أمممم!- إذا أردت أن تدرك قيمة الحياة، فعليك أن تستنشق رائحة القمح المطبوخ، نثرت داخله ما تبقى في جيبي من سكر، والتهمته عن آخره، سألني أبي إن كنت قد أحصيت صيدي أم لا؟، فأجبته بأن إحصاء الرزق يُذهِب البركة، فابتسم ومسح على شعري، ونهض من مكانه وألقاه في "برميل" الثلج حتى يأتي الصباح وتحمله أمي على رأسها لبيعه إلى زبائن الطريق، في هذا الوقت كان أقصى طموحاتي أن "أسرح" مع أبي إلى البحر، وأعود برزق يفوق ما يلتقطه هو، ثم صعد الحلم قليلًا فتمنيت أن أمتلك "لقافة" كبيرة، أجوب بشراعها البحيرة كلها، وأصطاد السمك من كل جنس ولون، وأصبح "ريسًا " يهابه الجميع، يوجه "الدفة" كيفما شاء، ويلقي بأوامره على

صياديه، ويعدل قسمة أرزاقهم، لكن الحلم ظل يكبر ويكبر ويكبر حتى وصل بي إلى أكثر مما ينبغي، فحينما تصل أحلامك إلى أكثر مما ينبغي تتحول ذنوبك الصغيرة إلى غول ضخم يتربص بك ليقتلك.

أنا كحبة السكر التي سقطت بين تلال الملح، كأنني لم أكن، كأنني لا شيء، فالألوان تفرض نفسها على العالم كله دون أن تفرّق بين حلو ومالح، الألوان كما الأيام بالنسبة لنا، نعيش فيها لكننا لا نرى منها إلا القليل، فلا ترانا، ولا يرانا أحد هنا، ومن يرانا يفر أمامنا كأنه رأى شيطان، فالأسماك تفر ونلاحقها بشباكنا، والطيور تفر ونسقطها بنبالنا، وشلالات الماء تفر إلى البحر الكبير، والشمس تفر إلى حيث اللامنتهى، نعم. نحن نعيش في العدم، ونستمتع به لأننا منذ خلقنا لم نعرف سوى العدم، كم تمنيت أن أعبر إلى العالم الآخر بقاربي الصغير الذي حُفر عليه اسمي قبل أن أولد، وظل يلتصق بي كالزلاجات، حتى نفضته عني عندما قررت الخروج إلى الطريق، أثير الغبار، وأدوس اليابسة بقدميّ، وأصعد، وأهبط، وأسير، وأتوقف دون مجاديف، لكنني نسيت أن من وُلِدَ في الماء يجب أن يعيش ويموت في الماء.

على "الرسوة" تتهافت "اللقافات" عند الغروب تباعًا، فتصطف مطبقة أشرعتها على سواريها، يرحل الصيادون حاملين رزقهم إلى أكواخهم الصغيرة، بينما يسهر "الطنيب" على حراستها، يسحب الدخان من "جوزته"، حتى يتوهج الجمر، يضع براد الشاي المتفحم على ركوة النار التي تضيء الشاطئ كله، فتبدو القوارب وكأنها سبائك مثلثة من الذهب الخالص، فنهتدي إلى ناره، نلتف حوله لنسمع منه حكاياه التي لا تنفد عن القراصنة، والملوك، والأميرات، وعرائس البحر، نبتسم، نضحك،

نقفز، تعلو صرخاتنا، ونتفرج على تلفازه القديم بلونيه الأبيض والأسود. نتفرج بهم على هؤلاء الذين يطلون علينا من هذا الصندوق، فنمد أيدينا لنتحسس وجوههم، لكننا سرعان ما نصطدم بالزجاج، كما اصطدمت أجسادنا بسطح الماء للمرة الأولى، وحينما تنتهي الجلسة بضغطة "زِر" من إصبعه نترك ما أرسلتنا به أمهاتنا من خبز وبصل، وسردين مملح، ونعود إلى أكواخنا، نقف حول "المواقد الحجرية" ننتظر الطعام، فلا طعام ساخن إلا بعودة الرجال ليلًا من البحيرة، نأكل، ونشرب، وننام، ونحلم جميعنا بحكايا "الطنيب" وصور تلفازه السوداء.

لم أكن أعلم لجزيرتنا اسمًا أو عنوانًا، ولم يخطر في بالي أن أعرف لها اسمًا أو عنوانًا، ولم أعبأ بأن أعرف لها اسمًا أو عنوانًا، فأنا هنا لا أعرف سوى الأرض السوداء البازغة من الماء، وكوخنا القديم الذي يبدو من بعيد كعين سلحفاة ناعسة، وقبة مقام "سيدي غانم الأشعري" التي تبرز كالربوة الخضراء، فيتبارك بها الصيادون قبل رحيلهم صباحًا، وعند عودتهم إلى أكواخهم مساءً، فإذا حمل أحدهم ثقلا ذكرَ الله و"سيدي غانم" (٢٧) وإذا وضع حملًا ذكر الله، و"سيدي غانم"، وإذا رمى شبكته ذكرَ الله، و"سيدي غانم"، وإذا شدها ذكرَ الله، و"سيدي غانم"، فالمقام الذي يقف على رأس الجزيرة في شموخ، يجلس داخله خادمه، ولا يغادره سوى يومين طوال العام، يوم تمطر السماء للمرة الأولى في الشتاء،

---

(٢٧) الأمير غانم بن عياض الأشعري من اوائل المسلمين العرب الذين حكموا المنطقة وانتصر أهل البرلس علي الرومان بقيادته عام ٥٣هجرية وبعض أهل البرلس عرب قرشيون .

فيغسل وجهه ولحيته وملابسه، ويدعو لنا بسعة الرزق، وينثر بذور القمح في أراضينا، ويعود إلى المقام ولا يبرحه أبدًا، ثم يخرج يوم الحصاد، يقطف سبع سنبلات وينثرهن في الهواء، فإذا حط عليهن الطير وأكل منهن هلل الصيادون، وكبَّروا وذهبوا إلى حصادهم، أما إذا أعرض عنهن الطير، عاد إلى المقام، ودعا لنا الله بأن يبدلنا رزقًا خيرًا منه، فتولول النساء، وتنوح النائحات، بينما ينطلق الرجال لحرق المحصول الملعون بكرات اللهب.

ترص أمي الأسماك بعناية في "مشنة" مسطحة، ترش عليها المياه لتزداد لمعانًا، وتضع فوقها حزمة من أوراق البوص الأخضر، وبعدما تطمئن بأن كل شيء بات جاهزًا، ترفع "المشنة" فوق رأسها، ثم تومئ إليّ بعينيها بأن أبحر بها نحو الطريق، فتقف في مكانها المحدد على جانبه الموازي للبحيرة، مصطفة مع بائعات "البلومي" و"الشبار"، و"الطوبار"، و"البوري"، و"الحنشان"، "والسمان" و"الشرشير" تُشهر أكبر أسماكها في وجه السيارات المقبلة، كاشفة عن خياشيمها الوردية، أما أنا فأعود إلى قاربي، فالرجال يبحرون في الماء ويصطادون الأسماك، ويبنون القوارب، والقبور، ويزرعون الأرض في الشتاء، أما البيع فهو من أعمال النساء، تناور أمي السيارات العابرة، فهناك من يتوقف للشراء، وهناك من يتوقف للثرثرة وأخْذ الصور التذكارية مع امرأة ذات هيئة لن تعوَّض، وهناك من يمر كالصاروخ دون أن يلتفت إليها أو يعبأ بوجودها، وحين يجن الليل تعود إلى كوخنا تحصي "غلتها"، وتحتفظ بها في خزانة الخبز بعد أن تمنحني نصيبي، فأطير إلى غرفة "الفرن البلدي" أنبش التراب الرمادي وأُخرج جرتي الفخار من مكمنها، وأضع فيها ما جنيت، فنقود

الصيادين تعينهم على إكمال عيشهم من العالم الآخر ليواصلوا الحياة، أما أنا فالنقود بالنسبة إليّ وسيلة لتحقيق حلمي بأن أصبح بحارًا يجوب العالم كله.

تنطلق الأبواق لتعلن عن ظهور قوارب الماء والثلج والبهار وحلوى الأطفال، والشمع والقناديل، والكيروسين، وخيوط الغزل، وكرات الرصاص، والفلين، والسجائر، وكل شيء، فتستقبلها مراكب الصيادين بالبراميل، والأواني الفارغة، فيأخذ كل صياد كفايته من الماء والثلج، والحلوى، ثم يبحث بعد ذلك عن باقي البضائع، إن شاء ابتاع منها، وإن لم يشأ دفع نقوده وعاد إلى حيث يتعلق الأطفال بذيول أمهاتهم على الشاطئ في انتظار حلواهم التي تكشف لهم عن طعم الملح عندما تذوب في أفواههم، أما أنا فكنت أحتفظ بنقودي بعيدًا عن سطوة الحلوى، فمذاق حبيبات السكر يكفيني كي أستمتع بكل ما هو جميل، ويبقى حلمي هو الأجمل كي أشق رتق الماء والملح وأنفذ منه إلى النور البعيد، الذي يحمل مدنًا كبيرة تمر من هنا ليلًا فننظر إليها بأعين زائغة، دون أن نتكلم، أو نعلق بكلمة واحدة، فنعيش راضين بعالمنا، الذي يشبه أحلامنا الباهتة، التي تلون عروقنا، ووجوهنا، وجلودنا، لكن تظل قلوبنا لامعة، تضيء كالأسماك في قلب العتمة، وتمنح الراجلين إلى عوالمنا عظة كبرى، بأن مثلنا يمكنه أن يعيش معلَّقًا بين السماء والماء، ولا يأبه بخزائن الأرض، ومن عليها.

وقف راضي جواري يتأمل الراية التي حملها الموج بعيدًا، ثم ألقى بسيجارته من فوق الفنار مضحيًا بنصفها الذي لم ينته، وأخذ يسرد لي قصة صياد أحمق اصطاد طائرًا هنديًا نادرًا، ووضعه في قفص، فترجاه

الطائر أن يطلق سراحه ويعطيه حريته، لكن الصياد رفض ذلك، وفي يوم من الأيام أراد الصياد أن يُسافر إلى الهند حيث موطن الطائر الأصلي، فقال الصياد للطائر:

- هل تريد أي شيء من هناك؟

فأجاب الطائر:

-اذهب إلى أفراد عائلتي، واحكِ لهم ما حدث لي.

فذهب الصياد إلى الطيور، وقال لهم ما فعله مع الطائر، وأنه لن يطلق سراحه أبدًا، فسقط في الحال أحدهم على الأرض ومات، قال الصياد في نفسه:

-ربما هذا الطائر أبوه أو أمه وقد حزن وأشفق على حاله.

عاد الصياد إلى الطائر ليبلغه ما حدث أثناء رحلته إلى الهند، وحينئذٍ سقط الطائر ومات، ففتح الصياد باب القفص وأخرجه لكي يدفنه، لكن فجأة طار الطائر ونال حريته، وظل الصياد يبكي على ضياع صيده حتى مات مقهورًا.

التفت إليَّ «راضي» باستغراب لأفهم منه ما علاقة تلك القصة بالراية التي أطاح بها الهواء بعيدًا، لكنه بادرني بكلمات غير مفهومة، ربما كانت شتائم، أو سبابًا، أو أي شيء من هذا القبيل، لكنني أيقنت بأنه أراد من قصته تلك أن ينعتني بالحمق لضياع الراية، فأحنيت رأسي على صدري وسط شعور انتابني بالخزي، لقد أخرجني هذا الأحمق بقصته من حياة أتوق إليها، وإلى أهلها، وأكواخها، وقواربها، وقبورها، لكن بأي وجه أعود

إلى هناك، بعد أن غمست جسدي في الرذيلة، وأطفأت قلبي بكلتا يدي، فإن عدت انفضح أمري وسط قلوبهم التي تشع بالنور.

جلست في مواجهته لتناول طعام الغداء، وشعرت بأنه أراد أن يسألني عن السبب الذي أتيت من أجله إلى هنا، في الوقت الذي أردت فيه أن أبادره بالسؤال ذاته، لكننا تراجعنا معًا عن طرح أية أسئلة، والتزمنا الصمت، لكنه عاد يسألني عن سبب إدماني للخمر ولحم النساء، فقلت له إنه "قدَر من الله"، فأجابني بأنه يعلم ذلك جيدًا، لكنه يريدني أن أجيب على سؤاله بكل تفصيل، فنظرت إلى أنفه القوقازي، وانفجرت ضاحكًا، ثم سألته عن سبب إدمانه للحشيش، فاحمر وجهه، ونهض من مكانه وقال غاضبًا:

- أنا هنا الوحيد اللي بيسأل..فاهم؟

فتظاهرت بعدم الاهتمام، وعدت إلى طعامي، فأخرج سيجارة وبيد مرتعشة أشعلها بعود ثقاب، وأخذ يحملق فيَّ، ثم اختفى، كان قلبي قد امتلأ بالرعب، من رجل مجنون لا أضمن ردود فعله، حتى أنه خيل إليَّ للحظات بأنه سيقتلني، كما قتل تمثال «نور» بأزميل النحت، ووضع في فمه سيجارة "حشيش" فهذا الرجل يفعل كل ما يتمناه وينحته على الحجر، لذلك فليس ببعيد أن يكون هاجس القتل يساوره ويلح عليه، بعدما اعتديت عليه بالضرب، وسخرت من أنفه القوقازي بنظرات مفضوحة.

ظللت أتلصص عليه من بين الأشجار حتى انتهى من نحت وجهي كاملًا، تراجع خطوتين إلى الوراء، وأمعن النظر فيه طويلًا، ثم عاد ينحته من

جديد، لكني تفاجأت بأنه قد غير معالمه بمهارة فائقة، حتى تحول في طرفة عين إلى وجه لـ"نور". تراجع خطوة واحدة وحدق فيه ثم سحب نفسًا عميقًا من سيجارته، وتقدم نحوه، ليحوله إلى وجهه هو، وبعدما انتهى غرس إزميله في أنفه القوقازي الكبير، وانصرف عائدًا إلى الفنار.

أمام البحر جلست أفكر في أمر هذا الرجل، الذي لا ينام ليلًا ولا نهارًا، ولا تفارق سيجارة الحشيش فمه أبدًا، إلا حينما يصعد إلى الفنار، فإنه يتحول إلى إنسان آخر، وكأن شيطانه يهاب سطوة النور، ويهاب رائحة «نور»، ويهاب كل من أتى إلى هنا ليتطهر من ذنوبه، لكنه دفعه إلى تقديس الدنيا بمتعها كلها، حتى إنه لم يعد يفكر في أمر الثواب، والعقاب، ولا الجنة والنار، بعدما استطاع أن يغيِّر من ماهية الأشياء، ويحولها إلى أجساد مطيعة له هو وحده، تخضع لأوامره، وتصغى إليه، يضفي عليها من ذنوبه، فتفعل كل ما يريد، ليشعر بأنه ليس وحده من يخالف حتمية قوانين النور على تلك الأرض، ظللت أسأل نفسي يا ترى من يكون هذا الانسان الذي يحمل داخله فنانًا كبيرًا، وتمتلئ عيناه بجنون وحزن، وقسوة؟، وما تلك الحكاية الرائعة التي يخفيها، واحتواها هذا المكان كما احتوى حكايات«نور» التي تتجدد كلما أضاء هذا الفنار، حتى إنها ما زالت تقبض بقوة على آثار أقدامه المنتشرة في رمال الجزيرة، فلا تمحوها الرياح، ولا يشوهها المطر، ولا ينبشها الطير، أما هذا الإنسان فلا أثر لقدم واحد له، لا أثر لقدم واحد لي!

كان الطائر يغرد بصوت عالٍ لم أعهده من قبل، بينما أخذت أتابع جسمًا أسود يرتفع به الموج وينخفض، يظهر فجأة، ويختفي، يقاوم التيار ليعود إلى البحر، ويعافر للابتعاد عن الشاطئ، للوهلة الأولى

ظننت أنه الراية التي فقدتها صباحًا. لكن حينما دفعه الموج بشدة وطفى على سطح الماء، أيقنت أنه ربما يكون حوتًا صغيرًا، أو سمكة قرش نافقة. لكن فضولي، أجبرني ألا أرفع عيني عن هذا الزائر الذي يأبى أن يخضع لمصيره الأخير. كانت الشمس قد دفنت ذيلها في البحر، وأجفلت نحو الغروب، فأسرعت الخطى إلى غرفة الماكينات، وأدرت الماكينة الثانية، وصعدت إلى رأس الفنار لأضبط العدسات، والفانوس الكبير، أمسكت بالكشاف، ووجهت حلقة النور نحو المياه، لكن كان الجسم الغريب قد اختفى. نسيت الأمر، ورفعت رأسي إلى النجوم التي لا تحرم فقيرًا أو غنيًا من رؤياها، بل ربما يراها الفقير ظهرًا في بعض الأحيان، ابتسمت عندما طفقت تلك العبارة بذهني، لكني هرعت على صوت «راضي» مناديًا (بحّار..بحّار) فقفزت درجات السلم حتى وصلت إلى حيث يقف، نظرت إلى "بحار"، وقد أصبح جثة ألقاها البحر بعد عناء على الشاطئ، نبتت الدموع في عيني " راضي " ونظر إليّ قائلًا : (بحّار مات!).

لقد غرق «بحّار» عندما قرر أن يقطع البحر ويعود إلى صديقه، بعدما أيقن أنه سيعيش بين شاطئين من نار، لقد كان «بحأر» أشجع مننا جميعًا حينما ضحى بروحه ليعتذر إلى «نور»، وسيظل أشجع متنا جميعًا، حتى لو مات ألف مرة، جثوت على ركبتيّ وأخذت أبكي بشدة، لقد ضيعت الأمانة، وضيعت نفسي، فما أقسى أن تشعر بأنك إنسان لا يستحق الحياة، تفاجأت بـ"«راضي» يربت على كتفي، ثم بدأ في جر "بحار " برفق نحو الجزيرة، نهضت من مكاني وحملته معه، حتى وصلنا إلى غابة الأشجار، التي كانت تضيء كلها بمشاعل من نار على وجه "نور"، أحضر

«راضي» فأسًا ونحت قبرًا أسفل شجرة، وفور انتهائه من الحفر، وضعت جثة «بحّار» بكلتا يدي داخله، وأنا أشيح بوجهي عن مواجهة حقيقة القبر الأبدية، أهلت عليه الرمال، فنظر إليّ «راضي» قائلًا بأسى :

-كلنا نهايتنا هتكون تحت التراب.

غرس شاهدًا خشبيًا على رأس القبر ورحل عني، بينما ظل دخان سيجارته يتصاعد خلفه حتى غاب في الظلام.

* * *

القســـم الثاني

"في قلب العتمة"

(١)

"الريس جابر"

كتم الجميع أنفاسهم حينما قفز مركب "الريس جابر" من على "الأزق" ليرتطم بسطح الماء، ويشعر به للمرة الأولى وسط زغاريد النساء، وقرع الطبول وعزف المزامير، ورقص الأطفال، فرفع «جابر» رأسه إلى السماء منتشيًا، ثم قبض على "الدومان"ولوح للمهنئين، وأخذ يجوب النيل حينًا، والبحر حينًا آخر، وكأنه أراد أن يذيق مركبه طعم الأيام، فيوم عذب، ويوم مالح، لكني لا أظن أن يكون هذا ما يقصده "جابر"، ففاقد الحكمة لا يعطيها، لذلك لم يكن فرحي طربًا، بل كان خوفًا، ورهبة، من قادم جديد جاء لأخذ ابني الوحيد إلى غياهب البحر، دون أن يترك صرحًا، أو اسمًا، أو ذِكرى لأولاده على اليابسة، وما تبقى من عمري لا يكفي لبناء كوم رمال لا يتعدى أنامل القدم، وزعت أكياس الحلوى على الأطفال الذين جاءوا ليشهدوا حفل التدشين، وأنا أحدق في أعينهم اللامعة بالأمل، ولكنهم مازالوا لا يعلمون بأن الأمل لا يغير النهايات المحتومة، فإما اللاموت في الماء، أو اللاحياة على الأرض. كانت «سميحة» تقف بعيدًا مع ابنتها، لا تشاركنا الفرحة، فقط هي جاءت لتسجيل الحضور كي تسلم من لوم الناس لها، ورغم استغراب المهنئين من وجودها في المشهد الأخير، إلا أنني وحدي من كان يعلم السبب، فشققت

الصفوف حتى وصلت إليها، حملت حفيدتيّ، ووقفت جوارها وبصوت خفيض قلت لها :

- نصيبك من الفلوس في البيت يا سميحة.

فتبدل وجهها، وانفرجت أساريرها، وانطلقت نحو الصفوف الأولى تطلق الزغاريد.

اقترحت عليّ «فادية» أن أسرح إلى البحر مع «جابر» ليطمئن قلبها، لكنني لم أحبذ الفكرة، لأنه لن يشعر بانفراده بقرار "الدومان" وأنا برفقته، فلا يمكن أن يكون للمركب "ريسان"، و «جابر» لابد وأن يكون وحده "الريس جابر". لكنني كنت أفكر جديًا في أن أسرح إلى البحر على مركب آخر، له "ريس" لا أعرفه، ولا يعرفني، فقبر أبي الذي عشت طوال حياتي أرسل إليه النور، آن الأوان الآن أن أراه عن قُرب، مخالفًا بذلك وعدي لأمي بألا أقترب من البحر ما دمت حيًا، لكن أحيانًا ما تأتي قوى أكبر من أي وعد فتقطعه، "و الإيد البطالة نجسة" نظرت إلى كلتا يدي، أطبقت أصابعي على الندوب القديمة، التي شهدت نورًا، وجمرًا، وقيدًا، ووعدًا، وسلامًا، ولقاءً، ووداعًا، خرجت من البيت، وقطعت الشوارع الضيقة حتى وصلت إلى شاطئ النيل، أطلقت يداي للماء، وغسلتهما بقوة، وخللت بين أصابعي، ثم استلقيت على ظهري متأملًا السماء، وقرص الشمس الذي يجر الأرض خلفه ليقذفها في البحر الكبير، ثم أخذت أتابع حلقات الضوء المكسو بماء الذهب، فنسيت كل همومي التي ألقتني هنا، ولم ترحم داخلي لحظات الجحيم التي حولت حياتي إلى رحلة بحث جديدة عن وجود جديد لي داخلها.

لم يكن العمل هو المعضلة الكبرى التي تنتظرني، بل الهم الأكبر الذي كنت أفكر فيه هو أنني سأتحول من آمر، إلى مأمور، فبعد كل تلك الرحلة الطويلة التي قضيتها مصلوبًا أمام النور حتى أصبحت مالكًا له أطوعه كيفما أشاء، أصعد به إلى أعلى مكان في الدنيا، وألوح إلى العالم الذي يجري من تحتي حينما ينظر إليّ الناس من بعيد بعين تملؤها الأمنيات، سأهبط إلى (الصفر) مرة أخرى، وأتعلم مهنة جديدة، أتلقى خلالها تعليمات جديدة، فأحزن عندما تُرد عليَّ أخطائي، وانتظر كلمات التشجيع والثناء على أفعالي الصحيحة، لكن هناك من يهمس ساخرًا (بعدما شاب ودوه الكُتَّاب)، وفي تلك العبارة اللعينة يكمن التحدي الأكبر لنفسي التي أرادت أن تنصاع للواقع، الذي إذا استسلمت له سأتحول إلى إنسان نهم، يجلس على المقهى يضع يده على خده، يشرب الشاي، والقهوة، واليانسون، والعناب البارد، ويلعب "الدومنيو"، و"الطاولة"، و"الورق"، ويقلم أظافره بقصافة معدنية، ثم عود آخر النهار إلى البيت يأكل ويشرب، وينام، ثم يموت، فقفز إلى ذهني ما تحدث به «طه عزيز» حينما كان يشد من أزري في الأسر، ويطلب مني أن أكون كسمكة السلمون، التي تسبح دائمًا ضد التيار، وتصعد إلى قمم الشلالات، فتتجاوز المحيط وتصل إلى منابع الأنهار، لتضع بيضها حيث وضعته أمها أول مرة، كي تكتب لنفسها البقاء، لذلك كان يجب أن أسرح إلى البحر مهما كلفني ذلك، فالعمل لا ينقص النور شيئًا، بل يزيده توهجًا وجمالًا، فبقاء الحال من المحال، فبالأمس كنت أعتلي الشاطئ، وأقف على رأس الفنار، فأشعر أن البحر يأتمر بأمري، ويأتي إليّ ليلًا لأبث داخله النور، وها أنا اليوم أسعى إليه، لأختبئ في ظلامه بعيدًا عن أعين الناس.

اتفقت مع "الريس فؤاد الديب" أن أسرح ضمن طاقم مركبه الذي سيبحر من البوغاز في اتجاه العريش بعد أسبوع، ويعود بعد عشرين يومًا، لكن «جابر» إلى أين سيبحر؟ سؤال ظل يلح عليَّ كلما رأيته نائمًا في غرفته في البيت، حتى حانت اللحظة التي انفجرت فيها بالسؤال عندما دخل البيت في وقت متأخر من الليل، وفتحت له الباب وأصبح وجهي يقف أمام وجهه للمرة الأولى منذ عدت من الفنار، فأجابني بأنه لن يعمل في الصيد، فتراجعت إلى الخلف خطوتين قبل أن يواصل حديثه ويخبرني بأنه سيعمل في تهريب السولار، والبشر، فتلك تجارة رابحة مليون في المائة، وتعود بآلاف مؤلفة على صاحبها، أما الصيد فمجهوده كبير، ورزقه فتات، بل فتافيت، فذهلت لما أسمعه، بل صعقت لتلك الجرأة التي دفعته بأن يبوح لي عن جرم أراد أن يرتكبه، وهو يعلم تمامًا بأنني سأرفض رفضًا قاطعًا، الآن أيقنت أنه لم يعد لي اعتبار في هذا البيت، وانطفأت رهبتي بمجرد أن انطفأ نوري، وأصبحت كائنًا عاديًا يمكن أن يرتكب الأخطاء الفادحة بدم بارد، أي مصيبة تلك التي حلت عليك يا «نور»؟!، واصل جابر حديثه وكأنه أراد أن يؤكد أنني أصبحت مجرد قارب عجوز تقذفه الرياح كيفما تشتهي، وعاد يخبرني بأنه اتفق مع مكتب أجنبي بأن يمد مراكبه بحصته المقررة من السولار المدعم في عرض البحر، ويعود بتصريح دخول بتاريخ مزور اشتراه من خفر السواحل في بورسعيد، يفيد بأنه قد أتم عشرين يومًا في رحلة صيد باع حصيلتها في الطريق، بينما لم يكلفه الأمر سوى يوم واحد، عاد به بأضعاف ما يجنيه أي مركب من الصيد خلال عشرين يومًا، ألقيت بجسدي على كرسي انحرف عن الطاولة الخشبية، وهو يعيد ويزيد في حديثه عن عمليات تهريب البشر إلى إيطاليا، واليونان، وقبرص، وكيف

يجني من العملية الواحدة آلاف الجنيهات، ومازال يتحدث حتى صرخت في وجهه بأن يكف، بأن يصمت، بأن يختفي تمامًا عن وجهي، فـ«جابر» الذي أنجبته قد مات.

خرج أبي من البحر في تلك الليلة ليزورني في منامي، نزع القنديل من يدي، وألقاه في الماء فانفجر بالنور، وأشار لي بيده إلى السماء فهطل المطر، حتى تسرب من ثقوب البيت، وحمل جسدي في قارب من عيدان الحطب الإفريقي الطويل، وأبحر بي نحو بيوت المدينة، لأدق أبوابها، بابًا، بابًا، وأوزع على أهلها قطعًا من الأسماك المضيئة، فظلوا يتحسسون ملامحي جيدًا، ويصيحون حينما أغادرهم لأدق باب بيت آخر (نور.. نور)، فألوح لهم مبتسمًا، وأمضي في طريقي، حتى توقف بي القارب أمام بيتي، فعجزت أن أدق بابه، فأسندت ظهري إليه، وجلست أبكي، فخرج أبي من داخله، وقبض على يدي وسار بي نحو البحر.

أيقظتني «فادية» وناولتني كوبًا من الماء، وهي تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فتحسست فراشي فشعرته جافًا تمامًا، نظرت إلى سقف المنزل فأبصرت ثقوبه وقد سدها الظلام، فشربت جرعة ماء، ووضعت رأسي على الوسادة، وأنا أبحث عن تفسير لتلك الرؤيا، فالتفت بوجهي إلى «فادية» قائلًا:

- يا ريت يكون شيطان يا فادية.

فعلقت بصرها ببصري ثم ربتت على كتفي قائلة:

-يحلها ربك يا أبو جابر.

أبو جابر؟! الآن أيقنت تمامًا بأن النور قد ذهب عني بالفعل.

في الصباح رسم حفيدي مركبًا بالطبشور الأبيض على جدار بيتنا في الخارج. وكتب عليه اسم أبيه "الريس جابر". فانتقده طفل من الجيران لأنه لم يرسم أسفل المركب ماءً يحمله، فرد طفل آخر ساخرًا (يمكن تكون مركب أبوه بتطير) فضحك الأطفال جميعهم، إلا حفيدي الذي همَّ برسم جناحين كبيرين لمركب والده ملأ بهما الجدار، ناديته، ففر الأطفال إلى الشوارع الجانبية، فمنعه الخجل من أن يأتي، فذهبت إليه، وأثنيت على رسمه، ثم طلبت منه أن يرسم لنفسه مركبًا ضخمًا على الجدار الموازي، ويرسم تحته ماءً يحمله، فانفرجت أساريره وراح يرسم مركبه بهمة مذهلة، ثم انتهى برسم طفل بجناحين يعتليه في شموخ، وكتب أسفله جدي «نور»، فقبَّلته على رأسه، وعلقت يديه في يديّ وطرت به عاليًا، فعاد الأطفال يتلصصون من خلف جدران البيوت، لكنه لم يعبأ بهم، فصنعت صنارًا من البوص، واصطحبته إلى النيل، وأخذت أعلمه كيف يصطاد السمك، فكان ينظر إلى أصدقائه الصغار الذين اصطفوا خلفنا، مفتخرًا كلما جذب سمكة من الماء، فصنعت لهم صنانير يصطادون بها، فجلسوا على الشاطئ يتبارون فيما بينهم، فصاح أحدهم بأنه اصطاد السمكة الأكبر، وصاح آخر بأنه اصطاد السمك الأكثر، أما حفيدي فظل صامتًا لا يبوح بصيده.

كانت أزمة الوقود قد عصفت بالبلاد، فخرج الناس يبحثون عن قطرات يسدون بها رمقهم، ويسيرون مراكبهم المتوقفة في البوغاز، فجلست على المقهى وسط الصيادين العاطلين، أتابع شكواهم، وهمومهم التي يتقافزونها فيما بينهم، فينفض شجار، ويشتعل الآخر، بينما يتربص تجار السوق السوداء لاقتناص صيدهم في المياه العكرة، في حين يطاردني

شعور قوي بأنني أنا من تسببت في أحزانهم تلك، فقد أخبرتني زوجة «جابر» بأنه قد خرج فجر اليوم لتهريب السولار في عرض البحر، فوقفتْ أمامي تحمل حفيدتي «أمل» وتتوسل إليَّ بأن أمنع زوجها من ارتكاب تلك الحماقات، وأن يتجه إلى البحر ينهل منه الرزق الحلال، فالمركب الحلم لا يمكن أن يرمي علينا بالنار، فقد تنازلتْ عن ذهبها وكل ما تملك في سبيل بناء "الريس جابر"، لكن "الريس جابر" يصر أن يبيعنا جميعًا، فتسمرت في مكاني، وحملت عنها "أمل" وقلت لها بعد لحظات تفكير للخروج من هذا المأزق:

-أنت وأولادك مسؤولين مني من اللحظة دي.

وغادرت البيت إلى مجتمع الناس لأغسل وجهي بهمومهم علَّني أشعر بأنني منهم، ولست عليهم، فلا حيلة لي في قطعة لحم انفصلت عني تعوث فسادًا في الأرض، والبحر، إلى أن انضم إلى الناس لأشاركهم الألم، فتوقف المراكب في مدينتنا يعادل الحرمان من التنفس، فقوتنا معلق صواريها.

أخبرني الريس "فؤاد الديب" أنه تم تأجيل موعد "السروح" إلى البحر حتى تنتهي أزمة "الجاز"، ومدَّ يده في جيبه ليعطيني مبلغًا من المال تحت حساب العمل، فرفضت رفضًا قاطعًا رغم إصراره الشديد، فشعرت أن سؤالًا زُرع في حلقه كشوكة الأسماك، يريد أن يطرحه عليَّ، سؤال أعلمه، كما أعلم مدى إلحاحه على الجميع هنا، فبادرته بالإجابة قبل أن يرهق نفسه بالسؤال:

-الريس جابر مركب مش للصيد.. الريس جابر مركب عليه غضب الله.

فانتفض الرجل وكأن أصابه مَسٌّ، ومضى يحوقل وهو يضرب كفًا بكف، لقد أيقن أن سفينة ابني من السفن المحرَّمة، فقد نهر موسى الخضر لخرقه سفينة المساكين، ولكن الخضر كان عالمًا بما يفعله، فحفظها لهم من الملك الظالم، لكني لا أعلم ماذا يحدث لو خرقت سفينة «جابر» كي أحميه من نفسه؟، للمرة الأولى أشعر بهذا العجز الذي ينخرني حتى كدت أنهار، فبعد أن قدَّر الله لي أن أعيش أكثر من ثلاثة أرباع عمري ما بين اليابسة والماء، قدر لي أن أنهي حياتي بين نارين، نار تأكل ابني الوحيد، ونار تأكل البيت كله، لذلك يجب أن أتحمل عني أنجو بنفسي وأهلي من هذا العذاب، فقد ألهم الله نوحًا بأن يصنع سفينته لينجي بها الخلق كلهم من الطوفان، وغرق ابنه الذي تمادى في كفره، لكنني لن أسمح لابني أبدًا أن يغرقنا بسفينته، ونحن من كُتِبَ علينا أن نأكل قانعين من حلال البحر، لابد وأن يعلم جيدًا أن نبتتنا زرعها رجل مبارك لا شيطان أحمق أراد لنا الزوال من الأرض، وأن أبانا رجلًا صالحًا أخذه البحر يوم خرج يلتقط لنا الرزق، فالبحر لا يأخذ إلا الطيبين ليزدان بقلوبهم، التي منها اللؤلؤ، ومنها المرجان، أما الأشرار فيلفظهم على شاطئه لتكون لهم قبور مظلمة من طين تأكل من أجسادهم حتى تتلاشى.

عاد «جابر» من رحلته المشؤومة بعد يومين غاب فيهما عن البيت، حدجنا بنظرات غريبة وسط ترحاب فاتر من زوجته وأمه، أما أنا فقد أعرضت بوجهي عنه، فاندفع إلى غرفته، وافترش سريره بالنقود، وخرج مسرعًا ليجذبني من يدي لأطالع ما جناه خلال يومين فقط، أمسكت برزم النقود، وقلت له:

- أنت بعتنا كلنا بالفلوس دي يا جابر.. واشتريت الشر لأولادك.

ألقيتهم على السرير باستهتار، ثم خرجت من الغرفة بعد أن نفضت عن رئتي رائحة المال الحرام الذي يتمرغ فيه، ثم التفتُّ إليه قائلًا:

-فلوس الدنيا كلها عمرها ما تعوض النور اللي أنت بتطفيه جواك يا جابر.

اتجهت إلى الحمَّام وتوضأت، ثم دلفت إلى غرفتي، وأغلقت عليَّ بابي وأخذت أشكو إلى الله ضعف قوتي، وقلة حيلتي، فأنا «نور» القوي عاجز عن حماية بيتي وأهله من ابنٍ عاق، سقط مني في ليلة غفلت فيها عن الذكر، فأصبحت كالأسماك التي يعاقبها الله فتقع في شبكة الصياد لأنها كفت عن التسبيح للحظات، فـ «جابر» هو عملي السيئ الذي يقف في حلقي ليذكرني بضعفي كلما أخذتني العزة، ومشيت أخرق الأرض بقدميّ.

استحلفتني «فادية» أن أخرج من غرفتي، ومن البيت وأطالع الناس، وأجلس على المقهى، ليكون لي أصدقاء، بعد أن أبعدتني حياتي في الفنار عنهم، فالصداقات تطيل العمر، وتزيح الهم، والغم، لكنني فضَّلت أن أستمر في عزلتي لأنني في غِنى عن صدمة أخرى قد تُعكر صفوي، وتجبرني أن أجلس في البيت رغمًا عني، ولم يمر اليوم حتى سمعت صوت «سميحة» في الخارج، فناديت على «فادية» وأخبرتها بأنني لا أريد أن أراها، وإذا طلبت شيئًا تمنحها إياه حتى لو كان هذا الشيء هو عفش البيت، فابتسمت، وتلعثمت قليلًا قبل أن تعلمني بأنها ستقيم معنا في البيت شهر أو شهرين لأنها حامل في شهرها الأول، فانفجرت غاضبًا، وغادرت البيت رغمًا عني إلى المقهى، جلست في طاولة جانبية أتابع ما

يتحدث به الصيادون، عن ضابط خفر السواحل الذي جاء إلى عزبة البرج شحاذًا، ويركب الآن "مرسيدس عيون". فالسولار يُهرب على مرأى ومسمع منه، بل أحيانًا هو من يعقد الصفقات مع الشركات الأجنبية للمهربين. كنت أحدج وجوههم وأشحن قلبي بغضبهم، حتى شعرت بأنني تحولت إلى جمل ضخم كاد أن ينفجر، في حين جلس شاب في مقتبل العمر يكتب شكواهم ويصغي إليهم باهتمام، ويجمع التواقيع بنهم، لكنه عندما اقترب مني يطلب توقيعي، توقف، ونظر إليّ باستغراب شديد، وسألني عن اسمي، ومهنتي، فترددت قبل أن أجيبه باسمي ومهنتي الجديدة:

-اسمي نور الدين الحناوي وبشتغل صياد.

فطلب "كارنيه الصيد"، فأخرجته له فاعتذر عن أسئلته ومد ورقته لأطبع توقيعي عليها، بينما اقترح أحد الصيادين أن نذهب إلى مولد "سيدي أبو المعاطي"(٢٨) في دمياط لعلنا نجد فيه الملجأ والملاذ من تلك المصائب التي تنهال علينا، فهناك تكمن البركة التي طالما انتظرناها منذ قيام الثورة في التحرير-شي لله يا أبو المعاطي يا جابر الخواطر- ففي شهر شعبان يكثر دعاء المريدين، وتعلو أصوات مرتادي المقام، فتضمخ

---

(٢٨) كان يعمل خواصًا في دمياط وذات يوم أثناء الحرب الصليبية فوجئ بفصيلة من المماليك تجري هاربة من الصليبيين باحثة عن مخبأ (ربما كانت منسحبة إلى الخط الثاني) فطلب منهم أن يدخلوا تحت واحدة من السلال الصغيرة التي أخفتهم جميعًا عن أعين مطارديهم، فاعتبره أهل دمياط من صاحب الكرامات، ومن الأولياء الصالحين، ويتم الاحتفال بمولده في الأول من شهر شعبان.

شوارع دمياط العتيقة بالبخور، فالرزق يأتي مع الروائح الطيبة، وتُفقأ أعين الحساد بشظايا الملح، ويموت مرتكبو الذنوب بالدعاء، بينما ترتفع هامات أرباب المهن، وأولياء النعم، فنهضنا من أماكننا قاصدين المقام، فالروح هناك تصعد إلى السماء وترتد جالبة الفرج من صاحب الفرج، فعشت بين ضحكات الأطفال وتطاير الأراجيح، وراقصي التنانير، وأهازيج الدراويش، وفرقعة الصواريخ، وخدع الحواة، واستمتعت بلحظات رائعة لم أشعرها إلا في حضرة النور، فوقفنا مع الذاكرين نتمتم بالتعاويذ، وننثر عن رؤوسنا الهموم، حتى تخلينا عن أنفسنا التي ماتت خلاياها داخلنا، فرأينا ألوانًا جديدة مبهجة تشبه تلك الحياة الأولى التي ولدتنا عليها أمهاتنا، فسالت الدموع، وانهمر العرق، وغسل الله صدورنا بالرحمة، فأيقن كل منا أنه لا رزق في حضرة الذنوب.

يا ريس البحر(٢٩)

يا ريس البحر خدني معاك أحسن لي

أتعلم الكار قبل العار ما يحصل لي

كيف توصف لي الدوا واتعلم الكار أحسن لي

ده أنا اللي رماني زماني وخدني الكار أحسن لي

استعد مركب "الريس فؤاد الديب" لمغادرة البوغاز الممتلئ بمراكب

---

(٢٩) أغنية منقولة من فيلم صيد العصاري .

(الجر(٣٠)، والشانشيلا(٣١)، والصنار بعد أن زوده بـ"أمانيَة"(٣٢) الطعام والشراب، وتموين "الجاز"، وبلاط الثلج، فتوقف أمام سقالة حرس الحدود ليأخذ دوره في التفتيش وختم "دفتر الثبوت"، والاطلاع على كارنيهات البحارة، ومن ثم الانطلاق إلى البحر لطلب الرزق، لكن عساكر التفتيش كانوا يتعاملون معنا كلصوص ذاهبون لسرقة الأسماك من البحر، فخرج منا شاب يافع، ووقف في وجوههم بعد إصرارهم على إخراج محتويات المركب كلها، وإعادتها مرة أخرى، حتى تحول الأمر إلى مشاجرة كبيرة بين البحارة والجنود لولا تدخل "الريس فؤاد" في الوقت المناسب لفض الاشتباك، فوقفت مذهولاً أمام هذا الشر الذي سكن فينا دون مبرر، وكأننا تركنا الخير في البحر الكبير لنتصارع داخل فنجان ضيق على زبد الماء، لم تكن مآسي الأسر تتركني في تلك المواقف، فدائمًا ما تقفز أمامي شاخصة مع أوجاع ندباتي القديمة، فجرح هنا، وشق هناك، لكن عندما يأتيك الجرح من قريب، فالموت أهون. أمعنت النظر في وجه الضابط الذي غادر استراحته على وقع الأحداث، وهو يصرخ في جنوده حينًا، وفي البحارة المساكين حينًا آخر، بينما كان ينظر نحوي بقلق، فناداني بعد أن توقف عن صراخه، لكنه لم ينتظرني حتى أصل إليه فتقابلنا في منتصف المسافة فسألني بلهجة عسكرية صارمة:

---

(٣٠) تستخدم جر الشباك في البحر لصيد السمك.

(٣١) الصيد على الأضواء الصناعية وقد غياب القمر.

(٣٢) ما تحتاجه رحلة الصيد من طعام وشراب

-إنت مين يا راجل أنت.

فأجبته بأنني بحّار جديد جاء يطلب الرزق من البحر، انتظرت أن يتمادى في أسئلته، ويطلب مني بطاقتي، وكارنيه الصيد، وربما يمنعني من الإبحار، لكنه تراجع عن لهجته قائلًا:

-خلي بالك من نفسك يا راجل يا طيب.

فتقدمت نحوه ومددت له يدي لأصافحه، فطلب "الريس فؤاد" ووقع له على "دفتر الثبوت"، وأعطانا الأمر بالانطلاق نحو البحر.

صعد "الريس فؤاد" إلى "الفانوس" وقبض على "الدومان" ليتولى قيادة المركب، بينما أعطى تعليماته إلى "السكندو"(٣٣) بأن يشرف على تجهيز "العدة" وتركيبها في "الونش" ورفعها على الصاريين، استعدادًا لإنزالها إلى البحر وجرها في الماء، بعد أن يكشف جهاز " الاسكانديل" (٣٤) عن مكان تجمُّع الأسماك في أعماق المياه بعيدًا عن الصخور والكهوف، والأحجار التي قد تعلق فيها الشباك، فتلقى البحارة الأمر وكأنهم في مهمة عسكرية، فهبط بحار إلى "الخن"(٣٥) لإعداد الثلاجة، لاستقبال السمك وتبريده، وقام بحار آخر برص الطاولات وتجهيزها للفرز، وذهب الميكانيكي للاطمئنان على الماكينة وتزويدها بالماء والزيت.

---

(٣٣) نائب ريس المركب .

(٣٤) جهاز كشف الأعماق .

(٣٥) باطن المركب.

أما باقي البحارة وأنا معهم فقد قمنا بفرد الشباك ورفعها، وانتظرنا تعليمات "ريس المركب" للدفع بها في المياه، كنت قد بدأت أتعرف على زملائي البحارة، الذين كانوا ينظرون إليّ غير مصدقين بأنني قادر على القيام بهذا العمل الشاق ورأسي برأسهم، ويدي تسبق يدهم، بعد أن كانت نظراتهم المليئة بالشفقة تحاصرني قبل الإبحار، وهم يتساءلون في همس كيف لعجوز مثلي أن يجرؤ ويخطو بقدميه إلى البحر؟، بل خرج منهم من تنبأ بموتي على ظهر المركب قبل أن تغادر "البوغاز" في عزبة البرج، لكنهم لم يعلموا بأن قوتي تكمن ها هنا، استمدها من ربوع الماء، والنور، ورائحة اليود التي تتسرب في دمائي فتحولني إلى عملاق يمكنه صهر نقوش العملات المعدنية بقبضة واحدة بين سبابته وإبهامه، فتحولت في نظرهم من ضعيف مستكين إلى مصدر يستمدون منه قوتهم عندما يصيب أحدهم التعب، فأنا الـ"نور" الذي لا يكل أو يمل، أو يخفت، أو يرتعش، أو يختفي، بل أزداد قوة، وإبهارًا، كلما زادت محركات العمل من الدوران.

انطلقت الإشارة بأن نلقي بالشباك في البحر- يا الله- كم هي رائعة تلك الفرحة المستلقية داخلنا عندما نمد أيدينا في يد لله كي ننهل من رزقه الحلال، فكل شيء مسخر لنا، الرياح والأمواج والطير، الفلك، وكأن ملائكة تحمل عنا الثقل وفقط تبقى في أيدينا الأسباب ليقول كل واحد فينا هأنذا كي نرضى بأنفسنا التي باتت أصغر من كل شيء، وعندما انتهينا ذهب كل بحار إلى حال سبيله ينتظر إشارة رفع الشباك بعد مرور أربع ساعات، أما أنا فأمسكت بالمصحف بعد أن صليت ركعتين، وأخذت أقرأ سورة الواقعة بصوت جهوري رصين، كنت أشعر أن عمري الذي

أفنيته خادمًا للنور لا يزن بارقة واحدة أمام نور الله الذي بات يحاصرني من كل جانب، فتوقف أمامي "الريس فؤاد" الذي كان يتفقد مركبه، وجثى على ركبتيه متسائلًا بنبرة مرتعشة:

- إنت إخواني يا ريس نور؟!.

لم أستوعب سؤاله للوهلة الأولى، لكنني سألته عن السبب الذي من أجله اعتقد ذلك، فاحمر وجهه خجلًا، وأخذ يمدح في "الإخوان" وجدودهم، لكنني أجبته بأنني مجرد رجل خلقه الله ليبحث عن النور في باطن البحر، وعلى ظهر الأرض، وفي كل مكان، ولا أنتمي إلا لنفسي التي أحملها بين طيات جسدي، فلا أنا سوى أنا، مهما ظلم الناس أنفسهم بأسماء لا تعني لي الكثير، فهز رأسه مستغربًا، وأخذ يسب في الإخوان وجدودهم، ثم نهض واقفًا، يعطي تعليماته هنا وهناك، ويتظاهر بأنه الرجل الأوحد على هذا المركب الذي يمكنه أن يصل بنا إلى بَرِّ الأمان ونحن محملين بالخير.

انطلقت الإشارة لانتشال الشباك، أو كما أطلق أحدهم "نتصلب"(٣٦) تلك اللحظة الفارقة التي ينتظرها كل واحد فينا، حيث لا مجال للتراخي أو النوم، فالكل يعرف ما الذي سيقوم به دون استثناء، فمن يقف على "أطر"(٣٧) المركب ومن يعمل على الونش، ومن يساعد على جذب الشباك من مرقدها. أما الريس فيقوم بدور المراقب ليقيم العمل، ويدون في ذاكرته ما يقوم به كل بحار فينا، فعلى مقدار العرق سيكون الجزاء،

---

(٣٦) لفظ صليبي اعتاد الصيادون إطلاقه خلال انتشال الشباك من الماء.

(٣٧) جوانب المركب.

لذلك كان هناك من يصطنع العرق، ويلهث وكأنه مقبل على الموت، لم يكن أمر مضحك أن يتعمد شخص أن يجرح نفسه حتى تسيل الدماء من جسده ليثبت بأنه يقاتل من أجل العمل، لكنه أمر مثير للشفقة والاشمئزاز بالنسبة إليّ، فللتعب الحقيقي وهج لا يخيب، يستوعبه جيدًا كل ذي عقل، أما من ذهب عقله فيكون ضحية مضحكة لأمثال هؤلاء، كان "الريس فؤاد" يقف خلفنا صامتًا، فقط يتكلم بأرنبة أنفه عندما يجبره موقف معين على الكلام، فلا تظهر من ملامحه التي خطها البحر على وجهه العابس أي علامات تبشر برضا أو تنذر بالشر، لكن هذا الجمود كان يجبرنا على ممارسة العمل بعين تترقب الرزق المقبل إلينا، وعين أخرى ماكرة لا تسقط عن وجهه أبدًا.

كانت الأسماك تتلألأ في الشباك، تحاول أن تقبض على الهواء بجسدها الانسيابي الجميل، فتقفز يمينًا ويسارًا علها تجد غايتها من الحياة مرة أخرى في هذا العالم الرحب، وقليل منها من استسلم لواقعه، فأذعن له، واستقر جسده في انتظار النهاية، فتحنا الشباك على سطح المركب، ومددنا أيدينا للرزق المتفتح كالزهور البرية التي طالها الندى، ودون تردد أو تفكير بدأنا الفرز، السردين ينهمر فوق السردين، والبربون يتكوم على البربون، والوقار يعلو الوقار، والدنيس يُلقى فوق الدنيس، والشراغيش تستلقي جوار الشراغيش، حتى امتلأت الطاولات عن آخرها، فحملناها إلى "الخن" وناولناها لـ "صابر" الذي قام برصها بعناية في الثلاجة بعد أن طحن بعض قوالب الثلج فوقها، كان قد اختار «سعيد»، بعض الأسماك الكبيرة لطبخها في "الجالي"(٣٨)، فـ«سعيد» أصغرنا سنًا وأسوأنا حالًا، لذلك فهو يقوم بأعمال إضافية على سطح المركب ليحصل على حصة

إضافية من نصيبه في بيع الأسماك، فالصبي أبوه قد مات متأثرًا بالالتهاب الكبدي الوبائي وهو ما زال في مهده، بعد أن تركه مع أمه وإخوته الأربعة، إلا أن إخوته قد رحلوا عن العزبة وانقطعت أخبارهم، وتركوه مع أمهم التي أصيبت بالعمى، لذلك يقف البحارة جميعهم إلى جواره، ويساندونه، ويعتبرونه مثالًا للكفاح، لأنه خرج إلى العمل صغيرًا، وتحمل مسؤولية بيته، فأكمل تعليمه حتى التحق بكلية السياحة والفنادق ويأمل بأن يعمل "شيف" كبيرًا على سفينة لنقل البضائع، أو الركاب ويجوب العالم، لذلك أطلق عليه البحارة "الشيف سعيد"، وأسندوا إليه مهمة الطبخ، حيث يتفنن في صناعة الأطعمة، فيأكل البحارة من طعام فاخر، وكأنهم في رحلة ترفيهية، لا في رحلة عمل خشنة من أجل الصيد، الأكل خلالها يكون من أجل اكتساب القوة التي تعيننا على بذل المزيد من الجهد والعرق، لا من أجل المتعة، وملء البطون.

جنّ الليل والشباك تتدلى في الماء، بينما كان فنار بورسعيد يلمع من بعيد، ليطمئننا برسائله الطيبة بأن هناك شاطئًا ينتظرنا إذا ما أردنا أن نلامس الأرض، أرخيت بصري وقبضت على غصة الذكرى، فمع كل فنار سنمر من أمامه، ومع كل لمحة ضوء ستبرق في بؤبؤ عيني من بعيد، سأعود إلى حياتي الماضية التي عشتها برفقة النور على الجزيرة بين تلال الرمال الحمراء، ونبل بحار، وصوت الطائر المغرد، وروح «طه عزيز»، وتماثيل راضي، وقلب "عادل" التائب، وخيالات أخرى تغدو وتروح دون أن تترك أثرًا، فتموت قبل أن تكتمل، فغصت داخل كل حدث طرق رأسي

---

(٣٨) مطبخ المركب.

وما زالت طرقاته تصدح داخلي، لكن سحبني «سعيد» من براثن الذكرى حينما أحضر لي كوبًا من الشاي دون طلب مسبق مني، وقدمه لي مبتسمًا، وهو يبرر ذلك بأنه رآني مستيقظًا فأراد أن يرافقني وردية الليل، فسألني عن عملي السابق، فقصصت عليه حكايات الفنار، والأسر في سجون العدو، وكيف قضيت عمري على البر أحمل قناديل النور للسفن العابرة، حتى دفعني التقاعد إلى البحر لأبدأ حياة جديدة لم يقع عليها اختياري، بينما قص عليّ من حياته الصغيرة الطويلة، وكيف كافحت أمه الضريرة من أجل أن يتعلم، ويلتحق بالجامعة، فأمه التي تعمل "خواصة"(٣٩)، تصنع "المقاطف"، و"البواقيط"(٤٠)، التي أنقذته من قفص الجهل الذي كان يمكن أن يقبع فيه طوال حياته، ولذلك هو يكافح من أجلها، ويحلم أن يصبح كبيرًا من أجلها، ليهديها النور الذي فقدته منذ سنين طويلة.

مرت خمسة أيام كاملة منذ خرجنا من البوغاز، لقبني خلالها البحارة بـ"الرجل البركة"، حيث كثر الرزق، وتهافتت الأسماك على الشباك من كل صنف ولون، حتى اكتظت الطاولات، وشارف المخزن على الامتلاء، فتوقفنا لنقل حصيلتنا إلى مركب عائد إلى البوغاز، ليبيعها في المزاد قبل فسادها، فاليوم أتى من يحملنا، وغدًا نحن سنحمله، هكذا يعدل البحر بيننا بعيدًا عن قوانين الأرض التي وضعها الفلاسفة الكبار، فالبحر يحملنا جميعًا، غني، وفقير، كبير، وصغير، أسود، وأبيض، طويل وقصير، ظالم، ومظلوم،

---

(٣٩) مهنة صناعة السلال من سعف النخيل.

(٤٠) أوعية من الخوص لصناعة الجبن.

البحر لا يفرق بين لغة ودين، أو اعتقاد، البحر يرحب بالجميع ويطفو بهم على سطح مستوٍ دون أن يستثني أحدًا، لكنه احتفظ بأعماقه مظلمة، لا يشعر بها إلا من قدر له ذلك، فلا يعترض عليه أحد، ولا يثور عليه أحد، فالبحر هو الحاكم الوحيد الذي يثور على نفسه فيطهر أحشاءه كلما أثقلها اللمم، أما نحن فنظلم أنفسنا بما نصنعه بأيدينا، فننظر إلى السفن الضخمة بحقد، وغل غير مبرر، وكأنها وحوش تخوض في الماء تريد أن تأكلنا لكونها كبيرة، بينما هي لا ترانا، ولا تسمعنا، ولا تشعر بوجودنا، فهكذا يولد الظلم في عالمنا من رحم الكبير عندما لا يرى الصغير، أو يشعر به، وهكذا يولد الحقد في قلب الصغير حينما يرى الكبير ضخمًا جدًا، وهو يعلم تمامًا بأنه لا يراه لكونه صغيرًا، أما الأسماك الكبيرة فلا تأكل رفيقتها الصغيرة، إلا حينما تراها طعامًا شهيًا لا أسماكًا مثلها، لذلك نزع الله من قلبها الندم لأنها إذا أحجمت عن ارتكاب جرمها مرات ومرات ستموت جوعًا، ويموت داخلها رزق ينتظره الصيادون يسدون به جوعهم.

دعاني «سعيد» لتناول العشاء مع البحارة، لكنني كنت أشعر بشبع غريب، كأن خروفًا كاملاً قد تربع في معدتي، ففضل أن يبقى معي، ورغم إلحاحي الشديد بأن يذهب إلى طعامه، لكنه أصر أن يجلس إلى جواري ليستمع إلى ما سأسرده عليه من حكايا، فالطعام باق أما الحكايا فتحتاج إلى لحظات تجلي، هكذا قال وهو يبتسم لي بود، إنها حقًا الإشارات التي يرسلها الله ليربت بها على كتفي الذي أثقلته ذنوب "جابر"، الذي لم أقص عليه حكاية قط، ولم يطلب يومًا أن يستمع مني إلى حكاية قط، فنفضت وجهه من ملامحي، ورحت أستحضر حكايتي مع أبي الذي

لم أر منه سوى خيالات، وبينما هممت في سرد الحكاية، فإذا بصوت "صابر" يدغدغ هدوء الليل، متوجعًا، فأسرعنا الخطى إلى حيث يلتقمون الطعام، فرأيناه، وقد وضع يده على بطنه، وهو يصرخ بأعلى صوته متألمًا، ثم انفجر القيء من فمه، فصاح "الريس فؤاد" قائلًا بلهجة شابها القلق :

-بطلوا أكل.. ارموا الأكل ده في البحر.

بينما ارتمى بحار آخر على الأرض بعد أن ظهرت عليه علامات الإعياء والقيء، وتبعه آخر، وآخر، حتى لحق الوجع بـ"الريس فؤاد" ومساعده، فوقفت متسمرًا قبل أن أصيح في وجه «سعيد» بأن يسرع في إحضار دلو ماء دافئ مذاب فيه الملح، كانوا قد أغشي عليهم، فوضعت خرطومًا قصيرًا في أفواههم لأغسل بطونهم بالماء والملح الذي أحضره «سعيد» في لمح البصر، فرجح أن يكون سبب ذلك هو تناولهم بطيخة فاسدة، كان "صابر" حالته لا تنذر بالخير، بينما استقرت حالة البحارة جميعهم بعد أن غسل الماء بطونهم، فطلبت من «سعيد» أن يدثره بغطاء، ويضع على رأسه كمادات من الثلج، بعد أن تجاوزت درجة حرارته الأربعين، فاتجهت ناحية الونش، وفتحت الشباك لأحرر الأسماك منها، وانتشلها من الماء فارغة، نظرت إلى فانوس المركب وتذكرت "الدومان" فصعدت إليه مسرعًا قبل أن ينجرف المركب، ويصطدم بمصدات الأمواج، أو بـ"بابور"(٤١) كبير يأكلنا دون أن يشعر، كان التيار قد "سوح" المركب

---

(٤١) سفينة النقل الضخمة.

بعيدًا، حتى تجاوزنا فنار العريش بمئات الأميال، فحاولت أن أستدير لنعاود أدراجنا، لكن تفاجأت بـ «سعيد» يقف إلى جواري مضطربًا، فسألته عن سبب تركه لـ"لصابر" والصعود إلى "الفانوس" فأخبرني بلهجة متحشرجة بأن صابر قد فارق الحياة، فهبطت مسرعًا إلى "البريدج"(٤٢)، فرأيت "صابر" وقد لفظ أنفاسه الأخيرة، فجلست جواره، وأخذت أدفع ضلوعه بقوة لأنعش قلبه، لكنه الموت الذي يزور أجسادنا، ويرحل عنها بعد أن يحولها إلى تماثيل خاوية، أرخيت جفنيه، وغسلته بالماء، وكفنته في جلبابه، وصليت عليه أنا و «سعيد» ثم قمنا بدفنه في "الخن" داخل مخزن الثلج، وعدت لأطمئن على البحارة الذين أرهقهم التعب، فاسترخت أجسادهم ممددة لا حراك فيها، فقط هي أنفاسهم التي ترتفع حينًا وتنخفض حينًا آخر هي التي تفصلهم عن ثلاجة الأسماك التي تحولت إلى قبر ضيق يفتح فمه لمن تتخلى عنه الحياة، كانت رائحة الموت تأتي مع رياح الشمال، فعشت معها أجواء الرواية الكولومبية "الحب في زمن الكوليرا" التي انتهيت من قراءتها خلال ليلة واحدة في "الفنار"، فخُيل لي لوهلة بأن نباح «بحَّار» يأتيني مع الأمواج من قلب البحر، لكن «بحَّار» الذي كان هناك لن يعود أبدًا من البحر، بل سيظل بعيدًا ليأتيني نباحه مع دفقات النور المتسرب من الذاكرة، صعدت مرة أخرى إلى "الفانوس" وسيطرت على "الدومان"، وأخذت أستدير بالمركب لأبدأ رحلة العودة لإنقاذ هؤلاء المساكين، لكن حينما رأيت أضواء "طُراد " تندفع نحونا كالصاروخ، أيقنت بأننا قد وقعنا في المحظور، باجتيازنا المياة الإقليمية المصرية، والدخول إلى بحر غزة،

---

(٤٢) الجزء الذي يحتوي غرف نوم الصيادين ومعيشتهم في المركب.

فزدت من سرعتي، محاولا العودة إلى حدودنا، لكن "الطُراد" كان قد لحق بنا، وطاف حولنا مرات عدة، فهدأت من سرعتي وتوقفت تمامًا، فالتصق بالمركب تمامًا، وصعد الجنود الإسرائيليون على السطح، وانتشروا في جميع أنحاء المركب يفتشونه، بعد أن شل أحدهم حركتي بسلاحه، أنا و«سعيد»، لم تكن براثن الأسر تريد أن تتركني، بل تصر أن تلاحقني في البر والبحر، وفي الهواء الذي أتنفسه، كان قلبي يدق بمنتهى القوة، ربما هو الخوف الذي خلفه ماضيهم الأسود داخلي، لكنني لم أكن أشعر بالخوف، بل كنت أشعر برغبة ملحة في قتلهم جميعًا، وتمزيق أجسادهم إربًا..إربًا، وإلقائها في البحر، فحاول «سعيد» أن يقاومهم، لكنهم كانوا قد رفعوا عن رؤوسنا السلاح، بعد أن اكتشفوا المصيبة الكبيرة التي قد حلت بنا، وتأكدوا بأنه لا حول لنا ولا قوة، فحدثهم «سعيد» بالإنكليزية، وأوضح لهم الأمر، وطلب منهم أن يطلقوا سراحنا لنعود إلى بلادنا، وننقذ زملاءنا قبل أن يحط عليهم الموت الذي يحلق فوقهم، لكنهم لم يستجيبوا لطلبه، واستدعوا زورق الإسعاف البحري عبر جهاز اللاسلكي، ليحملنا إلى أحد المستشفيات في تل أبيب، كان «طه عزيز» شاخصًا أمامي بشحمه ولحمه، ونظراته المتمردة التي تبزغ من قلب ابتسامة صادقة لا تفارق وجهه، فكشف لي عن جرحه الغائر من تحت قميصه الملطخ بالدماء، وما لبث حتى أفلت دمعة من عينيه، سقطت في ماء البحر فمزجته، فلحمه الذي سرقوه ربما يعيش في جوف واحد منهم الآن، ينعم بحياته وسط أهله وأولاده، بينما حرموا «طه عزيز» من قبر يضم ما تبقى من جسده، فصحت في وجوههم:

-مش هنروح تل أبيب..اقتلونا..قطعونا، لكن مش هنروح تل أبيب، لا يمكن تسرقوا لحمنا تاني.

فوقف «سعيد» إلى جواري وشبك أصابعه بين أصابعي، وصاح فيهم بالإنكليزية:

-We will not go to Tel Aviv but lifeless corpses

فنظروا إلينا مذهولين، ثم أخذوا يتشاورون فيما بينهم، ويحدثون قائدهم في جهاز اللاسلكي، ثم وجَّه أحدهم حديثه إلينا بأنه سيتم علاج المصابين على سطح المركب، وبعدها يتركونا لنرحل إلى بلادنا فذلك هو قانون البحر، وبلادهم لا تُخالَف القوانين وتحترمها، فرحبنا بالاقتراح بعد مشادة كلامية حول مسألة احترامهم للقوانين، في حين هم يحتلون أرضنا، ويضربون بكل القوانين عرض الحائط، ولكن هي الحاجة إلى الحياة التي تجعلك تضع يدك في يد عدوك ولو للحظات، فصممت ألا يتم إجراء أي عمليات جراحية لهم حتى لو استدعت حالتهم ذلك، فما كان منهم إلا الموافقة، لكنهم اجتذبوا منا واعدًا بأن نصورهم لدى أهالي المدينة، بأنهم ليسوا وحوشًا كما نظن، لكن الكذب الحلال هو ما كنا نضمره، حتى نحصل منهم على ما نريد، فكيف نقنع أهلنا بأن الذئب قد تاب عن أكل فرائسه، وأن الحداية تلقي من فمها الكتاكيكت؟، كان زورق الإسعاف البحري قد وصل إلى المركب، وصعد طاقمه المكون من أربعة مسعفين وطبيب من أصول عربية، فأخذ مننا معلومات عن الطعام الذي التهموه، ومتى التهموه؟، وكم مر من الوقت على حالتهم تلك؟، فأجبنا على أسئلته، بينما أثنى على تصرفي السريع بغسل بطونهم بالماء والملح، لكننا أخفينا عنه خبر موت «صابر»فربما يحتجزون الجثة

للتشريح أو أي شيء من هذا القبيل، فقام بغرس إبر "دربات الجلكوز" في عروقهم، وحقنتهم بأدوية مطهرة للمعدة، ومضادة للتسمم، ووضع على رؤوسهم كمادات طبية خافضة للحرارة، وطمأننا بأنهم سيكونون بخير، ثم أعرب لنا عن حبه الشديد لمصر وأهلها، ثم أخبرنا بأنه من أصول عراقية لكنه من مواليد حيفا، ويتمنى أن يزور بغداد ويستمتع بها، كما زار القاهرة واستمتع بها منذ عامين، فلم نعبأ بأمانيه الواهية التي سئمنا منها، ورحنا نتابعه وهو يعمل بمنتهى الدقة والحرص، فانتفض أحد البحارة وكأنه بُعث إلى الحياة من جديد، وتفحص وجوهنا مستغربًا، وأفرغ كل ما في معدته من طعام فاسد، وعاد إلى النوم، ثم قام آخر وفعل الشيء ذاته، وتبعه آخر، وآخر، نهضوا جميعهم، إلا "الريس فؤاد" هو وحده من كانت حالته سيئة جدًا لكنها مستقرة، فقام الطبيب بتدريب «سعيد» على تركيب محلول الملح، والحقن في الوريد، لإكمال جرعة العلاج خلال طريق العودة، وذلك بعد إصرارنا على الرحيل، فأخبر قائد "الطراد" (٤٣) الإسرائيلي بأن كل شيء على ما يرام وأنهم قد قاموا بما يمليه عليهم الواجب الإنساني والقانون، فأمدونا بالمياه والطعام، ومنحونا خريطة إرشادية لتسهّل علينا طريق العودة خاصة أن "ريس" المركب مازال فاقدًا للوعي، وتركونا نرحل من حيث أتينا.

تحرك المركب في الصباح متجهًا إلى المدينة، بعد أن رفعنا على صاريه الأمامي راية سوداء تلقينا على إثرها صافرات العزاء من مراكب الصيد العابرة، كان «سعيد» يقوم بواجبه على أكمل وجه، حتى امتلأ المركب

---

(٤٣) لانش سريع يستخدم في المطاردة.

بآهات الشفاء، وبعض الهمهمات التي تكشف عن عودة الحياة وانحسار رائحة الموت التي كانت تنتشر في كل مكان، فكم أتوق إلى سماع مشاجرة بين البحارة الآن يضج بها المكان، وكم أتوق إلى صوت "الريس فؤاد" الذي ينطلق كالمدفع ليقطع الجدل، ويحسم الخلاف، فيرضى الكل بحكمه حتى ولو تذمروا فيما بينهم، فمن لا يرضى بحكمه فالبحر أمامه والسماء من فوقه وعليه أن يختار.

نظرت إلى "الدومان" وهو يتحرك تحت قبضتيّ يمينًا ويسارًا، وشكرت الله الذي لم يسلبني نعمة النور حتى في أحلك لحظات الظلام، فجعلني قائدًا في سربي كما اعتدت أن أكون، وحفظ لي مقامي الذي أرتضيه لأصل بالسفينة إلى بَرِّ الأمان، فلم تكن الغيوم المنتشرة في السماء مجرد سحب صيفية عابرة، بل كانت علامات لا يفهمها إلا أنا، أكنها في نفسي، وأبتسم إلى الله كلما تحققت غايتي التي تمنيتها، فصوت "الريس فؤاد" كان ينفض عنه غبار المرض ليخمد المشادة التي شبت في أفواه البحارة المرضى، وهم يحملون أحدهم ذنب إصابتهم بالتسمم لأنه هو من اشترى البطيخ، فخلعت الراية السوداء، ورحت أطلق الصافرات بأننا مازلنا على قيد الحياة، وهبطت لأطمئن عليهم وأهنئهم بسلامتهم، فوكلني "الريس فؤاد" بقيادة المركب، وأمر البحارة بالرضوخ إلى أوامري حتى نعود إلى مدينتنا، ثم مدَّ يده إليَّ ليصافحني، ويشكرني لأنني أنقذت حياتهم.

شكرني البحارة جميعهم، وشكروا "سعيد"، وقرروا أن يتنازلوا لنا عن حصتهم من السمك الذي أرسلناه للبيع، لكننا رفضنا وتنازلنا عما تنازلوا به لنا إلى أولاد «صابر» الذي فارق الحياة، فتفاجأ "الريس فؤاد" بالخبر

وراح يوبخ نفسه لأنه لم يكن جديرًا بحمايتنا، ثم صفعته المفاجأة مرة أخرى عندما علم بأن مركبه قد جرفه التيار خارج الحدود، وسيطر عليه "الطراد" الإسرائيلي، الذي أصر ألا يتركنا إلا بعد أن يعالج المصابين، فضرب كفيه برأسه، متهيبًا لحظة الوصول.

* * *

(٢)

"كابي مايور"

ثبّت «راضي» تمثال «نور»على صخرة عالية مواجهة للبحر، بعد أن أضاف إليه كلبه الوفي، فوقف يرفع رأسه في شموخ يودع السفن العابرة، ويضم قرص الشمس بين يديه فبدا ككتلة غير منتظمة من الذهب الهندي، أما إذا أتى الليل ذاب في نور القمر، وبرق في الظلام كقطرة زئبق شردت عن قطيعها، فشعرت أن «نور» قد عاد ليؤنس وحدتي، ويمنحني قبسًا من حكمته، فالحياة هنا تحتاج إلى حكمة كبيرة، كي تتحول ذنوبنا التي اقترفناها منذ ولدتنا أمهاتنا إلى نور يمتد في قلب العتمة، فيخلقنا الله من جديد ملائكة من صلصال، تملأ العالم بالحق، والخير، والجمال، فـ«راضي» ظل ينظر إلى التمثال متباهيًا بما صنعه، وكأن الغياب في عرفه بلاهة مضحكة طالما أننا نحتفظ في رؤوسنا بذاكرة يمكن أن نصنع بها ما نشاء، ونتخيل بها ما نشاء، ونضيف إليها ونحذف منها ما نشاء، فكل تمثال ينحته هو ماضٍ انتهى وطواه التراب، لكنه أراد له أن يبقى متجسدًا في ملامحه التي أعادها بعد أن كادت أن تُمحى وتصبح كما الماء، لا طعم، لا لون، لا رائحة.

كنت قد قررت أن أساعده في نقل تمثال «نور» على زحافة خشبية تُجر بالحبال، حتى وصلنا به إلى القاعدة الجيرية التي أعدها فوق الصخرة العالية ليستقر عليها، فشكرني بشدة وصفع كفه بكفي فور انتهاء العمل، فهي المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة شكر تصدر من فمه منذ أتى إلى هنا، وهي المرة الأولى التي أرى فيها فمه خاليًا من سيجار الحشيش، فأسند ظهره إلى الصخرة جواري بعد أن أنهكنا التعب، وراح يشعل سيجارة حشيش، ويتحدث دون أن يدس أنفه القوقازي ويسأل، كنت أستغرب أفعاله الجديدة حتى إنني ظللت أبتسم لكل كلمة يقولها، ربما لأنه أصبح هناك إنسان يرافقني وحدتي، يتكلم وأستمع إليه، ويمدني بحكايات ممتعة، وأمده بحكايتي التي تصرخ داخلي، فـ«راضي» ليس مجنونًا، أو معتوهًا، كما كنت أظن، بل هو فنان أراد أن يبهر العقول بواقعه المخبوء بين أنامله، وإزميله الحديدي، لذلك اختار أن يكون قريبًا من "النور" ليرى ما لا يراه غيره، فجعلني أشعر دائمًا أنه حكاية رائعة، وسيأتي اليوم الذي يبوح فيه بسره الكبير، لكن كيف يرضى رجل كهذا أن يعمل خادمًا لهذا الفنار طوال حياته؟، ويسجن نفسه بين البر، والبحر، فمثله لا يصلح أن يظل مصلوبًا أمام فتيل مصباح يشعله ليلاً، ويطفؤوه نهارًا، ويلخص عمره في مثل تلك الأفعال البسيطة، فكان يقص عليّ حكايته، وكأنه أراد أن ينحتها بيديه من جديد ليغير في ملامحها ما عجزَتْ عنه الأيام، فمن يستمع إلى ماض الآخرين، يهون عليه ماضيه، فقد عمل «راضي» ميكانيكي سيارات قبل أن يأتي إلى الفنار، هاربًا من ذكريات حياته القاسية التي عاشها في طفولته، والتي كانت تهدم أي نجاح يمكن أن يحققه، فقد عاش قصة اعتيادية بين الخير والشر، بعد أن مات والده ووالدته ووجد نفسه يتيمًا ألقاه خاله في إحدى ورش

إصلاح السيارات، فقضى خمس سنوات من عمره تحت وقع دقات تطحن عظامه النيئة، وتهشم نتوءات رأسه الصغير، فأصبح لا شيء، مجرد لا شيء يعيش في هذا الزمان، يأكل من لحمه معلم الورشة الذي يستحل أجساد الأطفال، فيحولها إلى دمى خربة، ملطخة بدماء بريئة تريد أن تنتقم من العالم كله، لقد هرب «راضي» من الورشة بعد أن مارس عليه مِعلِّمه الجنس أكثر من مائة مرة، ربما هو لا يعرف عدد المرات تحديدًا، لكنه لن ينسى أنه إذا عبَّر عن ألمه، أو نطق بكلمة رفض واحدة، يُعلَّق من قدميه في مخطاف الورشة لساعات حتى توشك الدماء أن تنفجر من رأسه، بعدها يصبح كالعجينة اللينة في يد معلمه يفعل فيه ما يشاء، وقتما يشاء وكأنه زوجته التي أحلها له الله، لكن المعلم "كفرواي" لم يكن يقرب النساء، فقط هو يستلذ بلحم صبيانه الصغار، والكبار، بل ويحكي لأصدقائه في المقهى عن تأوهاتهم، ودموعهم، وتوسلاتهم، ويسخر من أعضائهم التناسلية التي تبرز من ملابسهم الداخلية المثقوبة، بينما ترتفع القهقهات والضحكات المجلجلة التي تملأ الشارع كله، مع دخان الحشيش الأزرق.

لقد وجد «راضي» أن تراب، وجدران، وأرصفة الشوارع، وظِل الكباري، والسيارات والكلاب، والقطط الضالة، وحاويات القمامة أحن عليه من البشر الذي رفض أن يلجأ إليهم مرة أخرى ويمد يده إلى شبابيك سياراتهم لينال من فتاتهم، فقمامتهم كانت أطهر وأنقى وأنظف من قلوبهم، فظل يأكل، ويكتسي منها لعام كامل، وبنى عالمه الخاص من أشياء صغيرة قد نعرض عنها، ولا ننظر إليها، بل ونقذفها بأحذيتنا أحيانًا إذا صادفتنا على قارعة الطريق، فصنع بيته من البوص على شاطئ

النيل. ونحت سريره من الطين، وفراشه من القش وريش الدجاج، أما وسادته فمن إطار السيارات، أما أطباقه فقد حفرها في الحجارة، فإذا أراد أن يأكل لحمًا، اقترب من الفنادق ليبحث في قمامتها، وإذا أراد خضارًا أو فاكهة اقترب من محلات وأسواق وعربات الخضار والفاكهة يأكل من قمامتها، وإذا أراد حلوى اقترب من مصانع الحلوى يأكل من قمامتها، فعاش أيامه، وكأنه يمتلك الأرض ومَن عليها، لكن أحلام الصغار لا تدوم طويلًا، فيأتي دائمًا من يخطف حلاوتها من أفواه أصحابها، ويستبدلها بالمر، والعلقم، والنار، حيث وقع «راضي» في يد ضابط شرطة كان يطارد بعض الأطفال من مروجي المخدرات لحساب تجار كبار، وحكم عليه بعشر سنوات قضاها في سجن الأحداث، وهناك تعلم أن يكون لصًا، وكذابًا، ونصابًا، وبلطجيًا، ولوطيًا لكنه تعلم الميكانيكا، في غفلة من فساد المكان، ثم اكتشف بالمصادفة أنه يصلح أن يكون نحاتًا، عندما وجد أنامله تحوِّل قطعة من الخشب إلى رأس "سقراط" التي رآها مرسومة على غلاف كتاب "يوميات سقراط في السجن"(٤٤)، الذي أتم قراءته أكثر من عشر مرات في مكتبة "الإصلاحية"، فنظر إليّ «راضي» متسائلًا: لماذا إذا أصبحنا أصحاب فضيلة نسجن، ونعدم بالسم؟ أما المجرمون فهم الأكثر حظًا وعمرًا في تلك الدنيا حتى امتلأت بهم الأرض فسادًا، لماذا لا يموت أولاد الكلب ويعيش أصحاب الفضيلة؟

---

(٤٤) تأليف وترجمة داود روفائيل خشبة.

الهواء، وصمت قليلًا ثم قال وهو يشير إلى تمثال «نور»وكلبه (أنا أنحت أصحاب الفضيلة وأعاقبهم بذنوبي لأنهم تركوني أكون مجرمًا وماتوا هم).

خرج «راضي» من السجن بوجه جديد، ليجد أن وجوه الناس كلها قد باتت تشبهه، فذهب إلى عمه وأخذ حقه من إرثه في أبيه، دون أدنى اعتراض، أو مقاومة فالمجرمون لا يستطيع أي إنسان أن يأكل حقوقهم، ولا يجرؤ أي إنسان أن يماطل في ردها إليهم، فقرر أن يضع حدًا لنهايته التي كتبها له غيره قبل أن يولد، وبدأ حياة جديدة من صنعه هو ففتح ورشة إصلاح سيارات، لاقت ذيوعًا وشهرة كبيرة، فقصدها الفقير بسيارته المعدمة، والغني بسيارته الفارهة، لكن الحياة الوردية لا بد لها من خريف ينهيها، ففتش منافسوه في ماضيه، حتى عثروا على مبتغاهم، فصبي "الكفراوي" مغتصب الأطفال لا يمكن أن يكون قد سلم منه، كما أنه مجرم (ردّ سجون) ولا يصلح أن ينعم بلقمة عيش حلال بين الناس، وعليه أن يعود إلى السجن ليعيش فيه إلى الأبد، فقد أصبح "الأسطى راضي" الوديع، الأمين، الصادق، الوفي، الشهم الذي كان يحلف الجميع بأخلاقه، خطرًا عليهم بين عشية وضحاها، لأنه أراد أن يكون شريفًا بلقمة عيش هم وسطاء فيها، فباع ورشته، وشقته بعد أن جردوه من لقب "الأسطى راضي" وألصقوا به (صبي الكفراوي"، وبات يخفي وجهه منهم خجلًا، أو لومًا، أو لأنه لا يريد أن يرى وجوههم، حتى إنه لم يجد أمامه إلا أن يطرق باب الحشاشين، فهم الوحيدون الذي يرونه كما يريد، فعاش بينهم البهجة التي لم يذقها أبدًا منذ أن أوجده الله في تلك الدنيا، فأدمن الحشيش، واحترف تذوقه بجميع أنواعه، بلدي لاذع، مغربي

صادم، لبناني حاني، أفغاني متسلط، باكستاني قاسٍ، حتى أصبح الحشيش كلمة تخرج من فم راضي كأنها روح تدور في الهواء ثم تعود إليه، لذلك هو يتلذذ بالنطق بها مرات ومرات، كما لو كان يردد اسم حبيبته.

هجر «راضي» الأرض بعدما أصبحت حياته بين الناس أمرًا مستحيلًا، واستقر به الحال إلى العمل في الفنار بعدما لجأ إلى أحد الضباط الكبار كان قد تعرف عليه خلال سجنه، بعدما أبدى إعجابه بتماثيله التي نحتها لمدير السجن، والسجانين، وزملائه المساجين، فاستقبله«نور» بحكاياه التي جعلته يدرك أن هناك بقعة مضيئة في زاوية ما من هذا العالم يمكن أن يرى من خلالها الله، لكنه لم يكن مستعدًا أن يمد يده إلى أي إنسان ليأخذه إلى أي منطقة أخرى غير منطقة اللانهاية التي حددها لنفسه قبل أن يأتي إلى هنا، فهو لا يريد أن يقفز إليه شبح جديد ينغص عليه حياته، فعلمه «نور»كل شيء حتى استطاع أن يجيد لغة الماكينات، يتحدث إليهن، ويتحدثن إليه، يفهمهن، ويفهمونه، ويعرف ماذا تريد إحداهن إذا زمجرت غضبًا، أو قفزت فرحًا، فيلبي طلبها سريعًا قبل أن ترتشف النور، وتحرمه منه إلى الأبد، لكن حكايات «نور» ظلت تطارده في كل مكان على أرض الفنار، حتى إنها لم تفارقه في وحدته التي فرضها على نفسه، لكنها تحولت إلى وحدة إجبارية عندما استنشق «نور» دخان الحشيش، وعلم أنه جاء إلى هنا ليدفن رأسه في الرمال كما النعام، ويهرب من واقعه، فالنور لا يمكن أبدًا أن يهرب من واقعه بل يظل ينخر في الظلام حتى يشق طريقًا يسير فيه الناس إلى حيثما أرادوا، لكن «راضي» لم يكن قد أكل قلبه الذئب، فقرر أن ينحت تمثالًا ضخمًا

لـ«نور» يحدثه كيفما شاء، وقتما شاء، فالتماثيل لا ترحل، أو تغيب، أو تكل أو تمل، ولا تتفلسف، ولا تكذب، ولا تقتل، ولا تنفع، أو تضر، بل نحن من نمنحها الحياة، لتفعل ما نريده نحن دون أدنى اعتراض، ورغم أن «نور» لم يكن كذابًا، أو نصابًا، أو أي شيء من تلك الصفات الإنسانية الجبارة، إلا أن «راضي» كان يخشى عليه من أن يدنسه بماضيه، الذي فرض نفسه عليه رغمًا عنه، فلا يمكن لأي إنسان أن يختار ماضيه، كما لا يمكنه أن يختار مستقبله، لكنه من الممكن أن يختار الملامح التي ينحتها بيديه.

كان قد حان الوقت لأقص عليه حكايتي التي طالما دس أنفه وأراد أن يعرفها، لكنه لم ينتظرني، ونهض من مكانه معتليًا الفنار، وأخذ يعمل بكل ما أتاه الله من قوة، حتى إنه رفض مساعدتي عندما صعدت إليه لأشاركه العمل، وطلب مني أن أرتاح في غرفتي وأترك له كل شيء فإرسال النور مسؤوليته وحده في تلك الليلة، فاندهشت لأفعاله الغريبة التي دفعته إلى أن ينطق باسمي للمرة الأولى "عادل"، حتى إنني شعرت بأنه أصبح يراني بعدما كدت أن أصل إلى يقين بأنه لا يعتبر لوجودي، ورغم أن حكايته كانت تمور في رأسي طوال الوقت، إلا أن حكايتي قد انفرطت، وأصبحت كحبات اللؤلؤ المتمرد على أرض من زجاج وآن لي أن ألملمها وأنزعها من الذاكرة كي أتخلص من صداها، فقد كتب الله للطفل الصغير أن يكبر، بعد أن رفعت المجاديف صدره، وانتشرت عظامه تحمل لحمه، وامتشق قوامه، وضرب السواد ذقنه، وخط شاربه في وجهه، واخشن صوته، فكسر جرته الفخار وأخرج ما بها من نقود، ليعبر الطريق الذي سيقذف به إلى العالم الآخر، ليحقق حلمه الذي حرمه من

مذاق الحلوى من أجل أن يذوق حلاوة الألوان المبهجة في مدن الجان والملائكة، تاركًا خلفه كوخه، وقبره، وقاربه، وأبيه وأمه وأخته، وهو يعلم تمامًا أن من يغادر جزيرتهم وتصيبه لعنة الحياة الأخرى سيفقد طريق العودة إليها مرة أخرى، حيث تختفي الأرض وتبتعد عنه كلما حاول الاقتراب منها، فحمل متاعه، وقبّل أخته على رأسها، ونظر إلى وجه أمه وأبيه نظرة أخيرة بعد أن أخذهم النوم العميق، فأخفى وجهه، وتسلل إلى الشاطئ بعد أن رافقته صيحات "الطنيب" المنتشرة هنا وهناك، لتشق ستار الليل.

في الإسكندرية كان كل شيء يجري بسرعة، السيارات، والترام، والناس، والعمارات، والبيوت، والبحر، أما أنا فقد كنت الكائن الوحيد الذي يسير على الأرض بمجدافين، فهربت إلى البحر وجلست على شاطئه أبكي وحيدًا، لم أكن أشعر بندم أبدًا، لكن الشعور بالخوف هو ما كان يراودني، فهؤلاء البشر ليسوا كما البشر الذين أعرفهم، وتلك الشوارع الصلبة لن تحمل مثلي من قبل، لكن كان لابد وأن أصل إلى ما أريد قبل أن تصل إليّ شباك "اللقافات" لتعيدني من حيثما أتيت، فذلك النور الذي يشع من المدينة لن يخذلني، وتلك الحياة التي أخشى أن تدهسني ستأخذني معها كما الماء الذي يطفو بأجسادنا إذا سلمناه روحنا، لذلك كان يجب أن أسلم روحي للمدينة وأصعد إلى فضائها الرحب، وأدور مع رحاها كما الظل، تحسست وجهي، وملابسي، ونظرت إلى حذائي المهترئ، وقررت أن أطوح كيسي القماشي في الهواء، وأركض بقوة ناحية الطريق قبل أن يلتقطه أحد ويعيده إليّ من جديد، فعبرت الشارع الرئيسي، وانزويت إلى شوارع جانبية، ووقفت أمام فتارين الملابس الجديدة، أتأمل

نفسي في بدلة رمادية، بل سوداء، بل صفراء، بل سأختار القميص هذا، والبنطال هذا، وهذا، وهذا وذاك، سأختارهم كلهم، وأشتري حذاءً لامعًا، وساعة يد، ونظارة شمسية، وزجاجة عطر، وهاتفًا محمولًا، لأتحدث إلى الناس جميعهم، وأقول لهم أنا مثلكم تمامًا، لي قلب، ورأس، ولسان، وعينتان، وشفتان، ووقدمان أسير بهما على الأرض بعد أن ألقيت بمجدافي في الماء، وقررت أن آتي إليكم لأحقق حلمي بعيدًا عن ممرات الملح والماء.

ساعدني سائق التاكسي الذي أقلني من "شارع رشدي" على استئجار شقة صغيرة في حي "المندرة"، ومن قاربي الجديد أردت أن أفتح صفحة ناصعة البياض أخط أحلامها بيدي، قبل أن يأتي من يسبقني إليها، فنزلت إلى الشارع بعد أن اغتسلت، وارتديت قميصًا وبنطالًا جديدين، وتجولت بين المحال التجارية، واشتريت طعامًا وشرابًا دون أن أشعر بأن هناك من يلاحقني بنظراته، فقد أصبحت إنسانًا عاديًا، مطليًا بالألوان ذاتها التي يطلون بها جلودهم هنا، أما لوني الوحيد الذي خرجت به من البحيرة فلا يصلح إلا لبلياتشو أحمق، عاش طوال حياته يصنع البهجة للناس، ومات كمدًا، دون أن يذكره إنسان بابتسامة واحدة.

في الصباح استيقظت على صوت التلاميذ في المدرسة المجاورة وهم يرددون النشيد الوطني على أنغام "الإكرديون"، ويحيون العلم بحناجر ناعسة، ففتحت الشباك ونظرت إلى التابور المتراص في فوضى جميلة، وابتسمت، فأنا الآن مثلهم فرخ صغير مازالت الدنيا تعلمه كيف يطير، وكيف يحط، وكيف يقبض بمنقاره على حبة قمح تسد جوعه، تحسست أثاث المنزل غير مصدق أنني أعيش بين تلك الأشياء التي لا تشبه القش،

ولا الكتان، ولا الطين، ولا البوص، فاغتسلت، وتناولت فطوري، وارتديت ملابس أخرى جديدة، ثم خرجت لأخوض رحلة البحث عن "سيد القارب" سمسار تطقيم البواخر في مقاهي "ميامي"، والذي كان قد دلني إليه أحد بائع الثلج حينما أتى إلى الجزيرة بعد أن سألته عن طريق ركوب البحر الكبير، فأشار سائق التاكسي الذي أقلني من "المندرة" إلى مقهى "عاشور" على الشاطئ قائلًا:

-هناك هتلاقي كل سماسرة البحر..خلي بالك يا ابني النصابين كتير.

فنزلت إلى الشارع بعد أن أعطيته ٧ جنيهات كان قد اتفق معي على دفعها مقابل التوصيلة، فقبّل النقود، وقربها من جبهته مرات عدة (يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم) ثم اختفى مع صوت الشيخ (محمد رفعت) الذي ملأ روحي بالسكينة.

على المقهى جلست في طاولة جانبية أرقب الأجواء، وأتفحص وجوه الناس، وأفواههم المليئة بالحكايا التي تخرج عنهم بلكنة إسكندرانية تشبه موج البحر عندما يمتد إلى الشاطئ، فاقترب مني النادل ليسرد قائمة المشروبات، فطلبت شايًا بالنعناع، لكن قبل أن ينصرف معلنًا عن طلبي لعمال "النصبة" سألته عن "سيد القارب" فتوقف للحظات، وحدق في وجهي طويلًا، ثم فتح معي تحقيقًا، عن بلدي، ومهنتي، وعن سبب سؤالي عنه، ومن دلني إليه، فأجبته بتلقائية ساذجة، فتركني وانصرف إلى الخارج دون أن يجيب على سؤالي، ثم عاد ليضع كوب الشاي أمامي دون أن ينبس بنت شفة، وما إن مرت لحظات حتى أتى رجل ممتلئ الجسم، ذو قامة متوسطة وجلس أمامي، ودون أي مقدمات سألني:

-هجرة ولا شغل؟.

فأجبته باستغراب (شغل!)، فأعاد عليّ التحقيق ذاته، وأضاف أسئلة أخرى عن مؤهلي الدراسي، وإجادتي للقراءة والكتابة. فما لبث حتى أطفأ دهشتي قائلاً :

-أنا سيد القارب.

فنهضت من مكاني، وصافحته بشدة، وناديت على النادل ليرى ما سيطلبه من مشاريب، لكنه لم ينتظر، وباغتني بلهجة قاطعة:

- عشان تركب البحر لازمك ٣ شهادات حتميات(٤٥) من أكاديمية النقل.

- .....

- هيكلفوك ٣ آلاف جني.

- ......

- وجواز سفر أسود وجواز أخضر وتأمين بألف جني.

- ......

- هشغلك نص بحري على مركب "كارجو" بـ ٦٠٠ ورقة خضرا في الشهر.

- .....

- أنا عمولتي راتب شهر ين كاملين قبل ما تخطي المركب..إستبينا يا أبا؟

---

(٤٥) شهادات في السلامة الشخصية، والحرائق، والإسعافات الأولية.

فهززت رأسي بالموافقة دون أدنى فصال، فطلب تجهيز أوراقي، وتكاليف الدراسة لأسبوعين في "أكاديمية النقل البحري"، واستخراج جوازيّ السفر، على أن ألقاه في اليوم التالي عند السابعة صباحًا في المكان ذاته لنبدأ الإجراءات.

لم تكن الدراسة في الأكاديمية بالأمر الصعب، فكل ما درسته قد عشته بفطرتي بين "السنابك"، و"القوارب"، و"اللقافات"، لكن للبضائع حياة أخرى غير حياة الأسماك التي تسبح هنا وهناك كيفما تشاء، تضرب بزعانفها وتمخر بذيلها الماء لتقاوم وتقاوم، وتبقى من أجل أن نعيش نحن ونلتقط أقواتنا، فيوم هي لك، ويوم لغيرك، لذلك كنت أشعر بأنني ذاهب لأحمل قبورًا حديدية خاوية، إلا من الموت، لكن الإسكندرية الحانية كانت تخطفني إليها برفق، وحب، وود، وحنان، فعشت تلك الأيام بين أحضان فتاة إغريقية ساحرة، تربت على كتفي، وتبتسم في وجهي كل صباح، وتضمني إليها، وتسحبني إلى عالمها لأراقصها على الرمال كل ليلة، حتى تتساقط النجوم من حولنا لتضيء البحر كله.

انتهى "سيد القارب" من تجهيز الأوراق، فسلمني جواز السفر البحري بلونه الأسود، وجواز السفر العادي بلونه الأخضر، وعقد العمل على السفينة النقل الهندية "كابي مايور" والتي ستبحر إلى بيروت من ميناء "بورسعيد" خلال يومين، فسلمته عمولته المتفق عليها، بعد أن أعطاني بعض النصائح المتعلقة بالعمل على البواخر، وطبيعة عملي كبحري، ثم صافحني بشدة، وتركني وجلس على طاولة أخرى يدخن الشيشة ويشرب الشاي متجاهلًا وجودي، وكأننا لم نتقابل أبدًا من قبل، فقبضت على أوراقي واتجهت إلى البحر، لأطرح عليه أسئلتي الأخيرة قبل أن أرحل عن

هذا العالم الذي كنت أراه شبحًا كبيرًا من قاربي الصغير طالما خوفتني منه أمي، ودست في قلبي الرعب من لعنة الطريق الذي يأكل كل من يقترب منه ويأخذه إلى النار، فلماذا كنت أخاف دائمًا من تلك الحكايات التي كان يحكيها لي أبي عمَّن رحلوا، وعادوا كالمجانين يقبلون أرضنا فابتلعتهم في جوفها فأصبحوا كأن لم يكونوا؟، لكن كان يجب أن أعي بأن الأرض لا تبتلع إلا الموتى، فهم لا يعلمون بأنهم هم المجانين الذين ابتلعوا أنفسهم منذ آلاف السنين، بعد أن حرموها من تلك الحياة، ودفنوا أجسادهم بين غياهب الماء، الملح.

خرجت إلى الكورنيش وجلست على مقعد حجري أودع رائحة المدينة التي سأغادرها إلى "بورسعيد" في صباح اليوم التالي، فظللت أطالع وجوه الناس، من يضحك، من تضحك، من يبتسم، من تبتسم، من يداعب أطفاله، من يقرأ على حبيبته أمانيه، من يقطب وجهه سارحًا في همومه، فنظرت إلى ضوء القناديل المنبعث من عربات (البطاطا والحمص والذرة)، وشعرت بدفء لم أذقه إلا في بطن قاربي عندما كنت أهرب إليه من برد الشتاء، فألفتُ وجوه الباعة، وتعايشت مع أحلامهم الصغيرة التي تدلت من أعينهم اللامعة بالطيبة، فآنست روحي الصفاء، وكأن هناك من ينزع همومي من صدري، ويقذفها بعيدًا، فأيقنت أن البحر قد رأف بحالي، وأجاب على كل أسئلتي التي كادت أن تقصم روحي، نصف هنا، ونصف هناك.

كانت دندنات عود تصل إلى مسامعي من مقعد مجاور يلتف حوله المصطافون، وباعة (الحمص والبطاطا والذرة)، والكثير من المارة وعمال النظافة، فلم أتمكن من رؤية هذا الرجل الذي كان يغني بصوت

داقٍ يجذب القلب، وتحن له المشاعر، فأسرعت الخطى لأنضم إلى الحلقة مرددًا معهم بابتهاج شديد (حب الوطن فرض عليًا..أفديه بروحي وعنيًا) كان شيخًا من يعزف ويغني مرتكزًا على عوده، يضرب بريشته على الأوتار، ويحرك أصابعه المجعدة عليها بخفة بهرتني، رمقني بنظرة حانية جعلتني أنساب بينهم دون أدنى مقاومة، فالغناء للوطن حياة.. الغناء للوطن وطن آخر يحيا داخلنا.. الغناء للوطن هو أنا وأنت وهؤلاء الناس البسطاء.. لكن كان السؤال هو ما ينغص علي لحظاتي الرائعة دائمًا، أي وطن تشعر به يا "عادل"؟ فالوطن عندي صغير للغاية، أما الوطن الكبير فلا عِلم لي إلا بما يقفز منه أمامي الآن فيبهرني بحياة أوجدها الله داخلي، أنسوني إياها منذ خلقت.

رافقني الشيخ في رحلتي على الكورنيش بعد أن رحلوا عنا جميعًا، كانت ملابسه شِبه الممزقة، وذقنه البيضاء الطويلة، وشعره الناعم المنكوش، وقسمات وجهه القديمة، لا تشي أبدًا عن كلامه المرتب، وطلاقته اللافتة، ومعلوماته الغزيرة، فأخذني بحديث عن أسماء كبيرة مضت، وأبطالٍ وتواريخ وحكايات، وسيَر، أجهلها تمامًا، فكان يحكي وكأنه أراد أن يشق عقلي ويصب داخله ما فاتني من حياة تلك الشوارع، فأطالع الأصوات، وما تخفيه الشقوق والأزقة والحجارة، فشجعني ذلك على سرد حكايتي، فظل منصتًا لأكثر من ساعتين، ينظر إليَّ بوجه أشبه برؤيا جميلة تتمنى ألا تستيقظ منها أبدًا، وعندما انتهيت ربت على كتفي قائلاً:

-أبحر رجل بسفينته يومًا ما من ذلك البحر ليبحث عن قطعة أرض صغيرة تحمله في وطن آخر، ليعيش عليها حياة أخرى، مع أناس آخرين، فأفنى عمره كله منبهرًا بكل ما يراه دون أن يعثر على مبتغاه، لأن وطنه

الأول كان يحاصره دائمًا في كل مكان، فأراد أن يعود إليه، لكن الموت قطع عليه الطريق، فمات دون أن ينال هذا، أو ذاك.

وقفت مندهشًا فاغرًا فاهي، وأنا أحاول الوصول إلى ما يرمي إليه، وانتبهت في لحظة إلى كلماته الأخيرة، فانطلقت متسائلًا وأنا أشير نحوه بسبابتي:

- هل تقصد أنني سأموت قريبًا؟

فأجابني بصوت ملأ عليّ المكان:

-ابحث عن حلمك وستجده مستلقٍ في فراشك كل ليلة.

فبلعت ريقي وتسمرت في مكاني مذهولاً، فحدق في وجهي مبتسماً، أو ساخراً، أو شامتاً، أو.. لا أعلم، ولا يهمني أن أعلم.. بينما كنت أحاول أن أستجمع قواي المتبعثرة أمامه، فانصرف عني طارحًا خلفه الضباب، ناديته كثيرًا لكن دون جدوى .

أطلق قبطان "كابي مايور" إشارة الإبحار من ميناء بورسعيد إلى "مارسيليا" مرورًا ، ببيروت، وإيطاليا، كان قد استقبلني "الباش ريس سمير المالح" بمحاضرة طويلة عن الالتزام بالعمل، وعدم التأخير عن موعد الوردية، والتعاون مع زملائي البحارة، وطاعة أوامره، وأوامر "كبير الضباط" دون مناقشة، أو اعتراض، أو تباطؤ، أو تخاذُل، أو..أو..أو، فسلمني "كبينتي" الخاصة التي سأقيم فيها، والزّي الخاص بالعمل، وخوذة، وحذاء واقي، ثم ناولني فرشتين للدهان، وأخرى ذات أسنان حديدية، ودلوين أحدهما ممتلئ بصُبغ أبيض، والآخر بالأزرق وكلفني بمهمة الدهان، و"المراشم"، فأمرني أن أقوم بصنفرة الأجزاء التي لحق

بها الصدأ، وإعادة طلائها في الدور الثالث من السفينة، على أن أفرغ من عملي قبل انتهاء الوردية الصباحية، فأنصعت لأوامره وبدأت عملي على الفور، فكنت أتلصص بعيني بين الحين والحين من الشبابيك الاسطوانية لأرى البحر الذي طالما حلمت أن أصل إلى نهايته، لكني تعثرت في نهايات أخرى، تحتاج إلى أحلام أكبر، وأكبر.

كنت أشعر بأن "سمير المالح" يرقب تحركاتي من بعيد، ويرصدها بعينيه ذهابًا، وإيابًا بطريقة تقليدية مفضوحة، فعندما أحس بأنني كشفته تقدم نحوي، وبدأ يُعدّل، وينتقد ما أنجزته من عمل، فأشار إليّ بأن أعيد طلاء هذا الركن، وصنفرة ذلك الباب، والشباك، والحائط، والفواصل الحديدية ثم سألني عن اسمي فأجبته (عادل)، وعاد يسألني عن مهنتي قبل أن أصعد إلى المركب، فأخبرته بأنني كنت أعمل صيادًا، فقال لي مستهزئًا:

-هنا مفيش شبك، ولا سمك، هنا فيه بضاعة وبس.

أعطاني حبوب للوقاية من دوار البحر، وحثني على المزيد من العمل، ثم صعد إلى الطابق الرابع ليباشر العمل فيه، وقبل أن أهم لإكمال عملي وتنفيذ ملاحظاته، دخل الفلبيني "جوميل" كبير الضباط، وحدثني بلغة غير مفهومة، تخللتها بعض الكلمات الانكليزية، فوقفت مشلولًا لا أنطق بكلمة واحدة، فأخذ يصرخ في وجهي، وركل دلو الصبغ بقدمه اليمنى، تلطخت أرضية السفينة وجدرانها، فهبط "سمير المالح" سريعًا ليستكشف الأمر، فحول صراخه ناحيته، وهو يشير إليّ بكلتا يديه، ثم صعد إلى الدور الرابع يجرجر ثورته خلفه، وقف "سمير المالح" مرتبكًا، ثم خرج وعاد بعد لحظات وفي يده زجاجة "نفط" وبعض خرق قماشية،

ألقاها تحت قدمي، وأشعل سيجارة، وأمرني بلهجة حادة أن أنظف المكان من البقع البيضاء التي انتشرت فيه بعشوائية مستفزة. فجثوت على ركبتيّ، وبدأت في إزالتها، لكنني كنت أفكر في أمر هذا المجنون الذي ركل الدلو دون أن أفهم لغته، فتوقفتُ عن العمل فجأة، والتفتُ إلى "سمير المالح" لأسأله عما كان يريده "جوميل"، فسبقني بأمر جديد:

- ادهن بالبوية البيضا جسم السفينة والفواصل، وبالزرقا الأبواب والشبابيك.

ففهمت ما كنت أسعى للاستفسار عنه، فحركت رأسي بالموافقة، وعدت لإزالة البقع دون أن أنطق بكلمة واحدة، بينما عاد هو ليرقبني بنظراته المفضوحة من جديد، لكنه في تلك المرة كان يعلم تمامًا أنني ألاحظ ذلك، فسحب نفسًا طويلًا من سيجارته، وكتمه بين ضلوعه، ونفثه في الهواء، ثم ألقى السيجارة على الأرض، وقتلها بحذائه، ونزل إلى جواري فتفاجأت به يساعدني قبل أن يداهمني الوقت، ويحين موعد راحة الغداء.

في مطعم الباخرة كنت أنظر كيف يأكلون بالشوكة والسكين، بينما لم أتعلم بعد كيف آكل بالملعقة، فحاولت أن أقلدهم لكن دون جدوى، فأنا لم أجرؤ على تناول طعامي بيدي اليسرى من قبل، لأن الشيطان يختبئ فيها دائمًا، فجلست أنتظر حتى يفرغوا، وأبدأ أنا في تناول طعامي بعد أن يغادروا إلى صالة المعيشة، فوقف "رئيس الطهاة" على رأس الطاولة الممتدة ليطمئن أن كل شيء على ما يرام، فالمسلمون جميعهم لا يأكلون لحم الخنزير، بينما يشرب بعضهم الخمر في الخفاء، والكثير من الهنود لا يأكلون لحم البقر، ولا يشربون اللبن، ومنهم من لا يأكل الدجاج، أو السمك، أما الفلبينيون فيأكلون كل شيء إلا القطط، فتعجبت ممن

يصنعون من الأديان أشباحًا تطاردنا في مأكلنا، ومشربنا وكلنا قد خلقنا الله نرضع من أثداء أمهاتنا؟، وبينما كنت أحاول التملص من مأزقي وقعت عيني على "سمير المالح" يجلس في مواجهتي ويأكل بيديه، فانفرجت أسراري لأنني وجدت أخيرًا من يشبهني على الطاولة، فقال لي بعد أن أدرك أنه قد حلّ لي مشكلة كبيرة:

-هنا على المركب بنلبس على كيفهم لكن بناكل على كيفنا.

فألقيت بالشوكة والسكين، وغرست أصابع يدي اليمنى في طبق الأرز، وبدأت في التقام الطعام بطريقتي، بينما لم يهتم أحد بما أفعله، إلا هو وحده من ظل ينظر إليّ مبتسمًا حتى انتهينا من طعامنا.

طلب مني "سمير المالح" أن أكون عينه في المكان، أنقل له أخبار البحارة، والميكانيكية، وأسرار الكبائن، وتحركات "جوميل"، لحظة بلحظة، فوافقت على طلبه على الفور، ورحت أهتم بنقل الأخبار، بل وأبحث عنها في كل مكان، بينما أغمض هو عينيه عن أخطائي، بل ونقلني إلى الإقامة في كابينة مميزة على مقربة منه، فأصبحت منبوذًا من زملائي، حتى أن البعض منهم كان يخشاني، ويتجنب الحديث أمامي في أي شيء، أما البعض الآخر فكان يحاول أن يرضيني بأي شكل، فكنت سعيدًا بتلك القوة التي منحني إياها، دون النظر إلى كونها قوة شريفة، أو خسيسة، فقط هي قوة لم أشعر بها من قبل، ولم يمنحني أحد إياها من قبل، لأنني لم أكن في حاجة إليها داخل عالمي الذي رحلت عنه، فكل شيء كان يجري هناك كما نريد، لكن هنا على سطح السفينة لابد وأن تكون إنسانًا آخر غير الذي كان يحتويك، فالأرض تمنحك خيارات كثيرة للعزلة، أما هنا فلابد وأن تكون الأقوى لتبقى دائمًا فوق سطح الماء مهما اشتدت

العواصف، فمنحني "سمير المالح" كل نصائحه، حتى أصبحت وجهه الآخر، فأحيانًا كنت أشعره حكيمًا، وأحيانًا أخرى كنت أشعره زاهدًا، وأحايين كثيرة كنت أراه شيطانًا، لكنه لا يضر، بل ينفع كثيرًا. لقد أصبح "جوميل" يحدثني بالعربية، والتي كان يجيدها لكنه يخفيها عندما يريد أن يصب لعناته، ويمارس قوته على الضعفاء، ليشعرهم بأنهم أغبياء، وأنه العبقري الوحيد الذي يجب أن يُعمَل له ألف حساب، لكنه صار يعمل لي ألف حساب بعد أن تحولت إلى جاسوس كبير.

رست "كابي مايور" داخل ميناء "جنوة" في إيطاليا، بعد أن غادرنا ميناء "بيروت" فكان مع كل ميل بحري نقطعه أشعر بأن حلمي قد أضحى حقيقة، فالأحلام لا يمكن أن تتحقق أبدًا إلا إذا كنا أقوياء، لذلك كنت أقوم بمهمة التجسس على أكمل وجه لصالح "سمير المالح" الذي تربطه علاقة قوية بربان السفينة الذي يقيم في "قمرة القيادة" ولا يعلم عن رعاياه شيئًا، فنحن البحارة لا يشعر بنا أحد هنا، ولا ينظر إلينا أحد إلا كتروسٍ يجب أن تعمل، وتأكل، وتنام، كي يعيش هؤلاء الذين يقبعون في "قمرات القيادة" في نعيم، فقد أخبرني "سمير المالح" يومًا ما أنه خلال عمله على متن إحدى السفن احترقت غرفة الماكينات، ومات طاقمها عن آخره، ورغم ذلك استمرت الرحلة بعد تعيين طاقم جديد، وكأن شيئًا لم يكن، فموت الصعاليك لا تتوقف من أجله السفن طالما أنها مازالت تطفو على سطح الماء، ويزعق بوقها بقوة معلنًا عن حياتها، أما إذا غاصت في القاع فإنها تجذب معها كل من عليها إلى الموت.

بعدما انتهيت من ورديتي نزلت لأتنزه في المرفأ الإيطالي، وأغسل عيني بجمال لا يشبه أي شيء مما رأيته من قبل، فلماذا يبتسم هؤلاء الناس

دائمًا؟ ما الذي تقع عليه أعينهم ولا نراه نحن؟ رفعت رأسي لأطالع التلال الخضراء المحيطة بالميناء، وإلى السفن الضخمة الخيالية المذهلة، ثم حدقت في وجوه الناس الذين يجيئون ويروحون، وفي وجوه الفتيات الشقراوات، وإلى صدورهن، وأفخاذهن العارية، وهرولت عائدًا إلى السفينة، بعد أن دُبَّ في قلبي الرعب من دنيا ينحتها الماء، والعسل، لأنها لن تسمح لمثلي أبدًا بأن يشوهها بوجوده. صعدت إلى كبينتي في الباخرة، وظللت أتفرج من بعيد، لكني تفاجأت بـ"جوميل" يحمل في يده زجاجة خمر، ويدخل إلى السفينة بصحبة فتاة إيطالية، فخرجت من "الكابينة" وأخذت أراقبه حتى تأكدت أنه قد أدخلها إلى كابينته واختلى بها، فأسرعت إلى "سمير المالح" أدق عليه بابه لأنقل إليه هذا الخبر المهم، لكنه لم يفتح بابه إلا بعد أن كلّت راحتي، فخرج إليَّ شبه عارٍ، فصدمت عندما رأيت فخذ امرأة يلمع من تحت الغطاء، فسألني بغيظ:

-عايز إيه يا عادل؟ .

فنقلت إليه النبأ العظيم الذي يحمل كارثة كبيرة، فضحك بشدة، وقال ساخرًا:

-ده عادي جدًا..روح اعمل زيه، وابسط نفسك، وغيَّر الزيت.

فأحبطني، بل صفعني ما رأيت وسمعت، فعدت إلى كبينتي أجرجر ذيول الخيبة، بينما كاد قلبي أن ينحشر بين ضلوعي من هول ما قاله، رغم أنني تمنيت فعل ذلك حينما نزلت وتمشيت على رصيف الميناء، ورأيت ما رأيته من الفتيات الشقراوات، بل كدّت في نفسي أن أقتحم أحلامهن في تلك الليلة لأستمتع بهن في الخفاء، لكن كيف أصبحت الذنوب شيئًا

عاديًا، يباع ويشترى، كما الطعام والشراب؟، بينما ظللت طوال حياتي الماضية أخجل أن أنظر إلى سمكة عارية برزت مفاتنها، أو إلى وجه امرأة جلست تغسل شعرها على شاطئ البحيرة فانعكست عيناها على صفحة المياه، فليس للذنوب معانٍ أخرى سوى أنها فضيلة كبرى إذا لم يمسسها بشر.

انطلقت خيوط النور من الفنار لتطهر الأرض والماء، والهواء من براثن الظلام، وتعلن للعالم كله أننا ما زلنا نعيش رغم أنف كل من تجاهل حياتنا، فصعدت إلى جوار «راضي»، ورفعت آذان المغرب، بصوت جهوري نفخت فيه من روحي لعلّه يُسمع من في آذانهم صمم، فقدمت «راضي» ليؤمّنا في الصلاة، فاحمرَّ وجهه خجلًا، واعترف لي بأن أحدًا لم يعلمه كيف تكون الصلاة، فامتصصت الصدمة، وتظاهرت بأنه أمر عادي، فطلبت منه أن يغتسل، وعلمته كيف يتوضأ، وكيف يؤدي صلاة المغرب، وعندما انتهينا، صافحني بشدة، وركض ناحية البحر، ليتحدث إلى الله، بينما كان الطائر الخفي يملأ الدنيا بتغريداته.

نحت «راضي» حلقة كبيرة من أربعين حفرة في ساحة الفنار، وأشعل داخلها النيران، بعد أن وضع في رقبة تمثال«نور» طوقًا أخضر من أوراق الشجر، ثم دعاني للعشاء، والاحتفال معه بعيد ميلاده، فلبيت الدعوة بعد أن ارتديت أجمل ملابسي، ووضعت عطري المفضل، وأحضرت له ساعة يد فضية كنت قد اشتريتها من أحد محلات باريس، فشكرني على الهدية، وتلبية الدعوة، وأشار لي بيده بأن أجلس لتناول العشاء الذي أعده بنفسه، فتفاجأت بأنه قد وضع زجاجة "شامبانيا" وسط الطعام، وأسند جوارها سيجارة حشيش مطفأة، فأهملت كل شيء حولي،

وصرخت بقوة بعد أن التقطت زجاجة "الشامبانيا" من فوق الطاولة (أخيرًا..ملكة جمال الأرض؟!) ففجرت الغطاء بنهم، ورفعتها على فمي وبدأت أشرب، وأشرب، وأتجرع، وأرتوي حتى تصببت على ملابسي، وما إن أدركت طعمها، توقفت، ونظرت إلى «راضي» ، وسألته مذهولًا:

-إيه ده؟ دي مَيَّة.

فانفجر ضاحكًا ثم تساءل برطانة:

-وهو انا كنت قلت لك إنها شامبانيا؟

فأخبرني بأن البحر كان قد لفظها على الشاطئ فاحتفظ بها لتلك اللحظة التاريخية، فانفجرت ضاحكًا، ضحك معي، وقال مازحًا :

-الحمد لله إن البحر مرماش علينا مومس بلاستيك.

فعدنا إلى الضحك، فصفع كفه بكفي، ثم أمسك سيجارة الحشيش، وأخذ منها نفسًا طويلًا جدًا، ووضعها في زجاجة "الشامبانيا" الفارغة، وأحكم عليها الغطاء، حتى امتلأت بالدخان، وركض ناحية الشاطئ، وطوحها بقوة في البحر، ثم عاد لاهثًا ووقف في منتصف الدائرة المضيئة، وأمسك بيدي ورفعها إلى السماء، وصاح بأعلى صوته والدموع تنساب على خدّيه: (ياااااارب اغيثنا بنورك الذي لا ينطفئ).

بينما وقفتُ حزينًا أتعجب من ضعفي الذي جعلني ألهث خلف ذنوبي دون أدنى مقاومة، فأنا الضعيف الذي سقط في جنة "كاميليا" دون أدنى مقاومة، فظل يشرب من يدها سمًا حسبه عسلًا حلو المذاق، ولأنه لم يذق العسل أبدًا من قبل تقبله رغم مرارته لأنه العسل، لكن «نور» عندما أذاقني جرعة واحدة شعرت أنني قد عشت خدعة كبيرة، لا يمكن

أن يقاومها مثلي، لأنني لم أطالع أبدًا قلوب الناس، ففي جزيرتنا إذا رأيت قلبًا واحدًا، فإنك قد رأيت كل قلوب سكانها، فنحن نأكل من طعام واحد، ونرزق برزق واحد، ونشرب من ماء واحد، ونرى ألوانًا واحدة، وكل المذاقات تتلخص في مذاق واحد، لذلك كنت أظن أن هذا العالم الكبير كله واحد، فلِمَ لا ونحن البشر الذي خلقنا الله من رحم واحد، لكني أيقنت بعد أن خضت تلك التجربة الكبيرة بأن هناك، أسودَ، وأبيضَ، حلوًا، ومرًّا، خيرًا، وشرًا، ومن بين هذا كله خرج الإنسان الجديد، ليدوس على أي شيء ، وكل شيء كي يبقى وحده بلا منازع.

عاد إليّ «راضي» ، وضم قبضة يده، وصفعني في وجهي، وقال لي إن هذا حق أخذه مني في الدنيا، قبل أن يشكوني إلى الله، فوقفت في وسط حلقة النار مستسلمًا تمامًا، متمنيًا المزيد والمزيد من تلك الصفعات، التي ستعينني على تلقي الجزاء، فكيف لي أن أستسلم إلى الذنوب التي حجبت نفسي عنها؟ كيف أفرح بزجاجة خمر خادعة، وأتجرع منها بنهم دون حساب؟ كيف لي أن أصبح إنسانًا بلا ذنوب كما الشجر، والبحر، والسحب، والمطر، والشمس، والقمر؟ لماذا نحن من خلقنا الله كي نشوه كل جميل خلقه؟ قبض «راضي» على يدي بقوة، وتوسل إليّ أن نقف معًا في وجه الفأرة الصغيرة التي تأكل في السد الذي يحجب عقاب الله، لابد وأن نعي أننا ما جئنا هنا إلا هربًا من ذنوبهم جميعًا، لنجلس تحت مظلة النور، يرانا الله ونراه في كل هذا الوجود الجميل من حولنا، فجثونا على ركبتينا ورفعنا أيدينا إلى السماء ننتظر الرحمة.

* * *

(٣)

الخط الأزرق

وقفت مع «سعيد» على قبر «صابر» حتى انتهت مراسم الدفن، ووراه التراب في قبره، بعد رحلة عناء مع الإجراءات الغبية، فعدنا إلى المدينة نحمل بين جواحنا خيبة الأمل، وذكرى أحداث لن تندمل داخلنا بسهولة، بعد أن رجعنا بخفيّ حُنين، وجثة "صابر" الذي أفنى عمره بين قوالب الثلج، فكان قبرًا له لثلاثة أيام متتالية على سطح المركب، فاتفقت مع «سعيد» أن نذهب إلى منازلنا لنستريح ثم نلتقي بعد صلاة المغرب للذهاب إلى المستشفى المركزي، والاطمئنان على "الريس فؤاد"، وطاقم البحارة، بعد أن حولهم حرس السواحل إلى هناك، لكن قبل أن ننتهي من عبور الشارع الرئيسي الذي سينتهي بنا إلى كومة البيوت المتراصة على شاطئ النيل، أوقفنا ضابط "النقطة" هو وعساكره وخفره، وأصر أن يلقي بنا في السيارة "البوكس"، وعدم السماح لنا بطرح أي سؤال، أو أي استفسار، أو الحديث مع أحد، وأمر بعزلنا لمدة ليوم كامل في حجز خاص، وسط تكتم شديد عن وجودنا داخل "نقطة الشرطة" خوفًا من أن يقتحمها الأهالي لتحريرنا، ثم تم ترحيلنا في اليوم التالي إلى مقر "الأمن الوطني" في دمياط، وسط حراسة مشددة أوهمتنا بأننا قد ارتكبنا جرمًا كبيرًا قد نعدم على إثره.

في غرفة الانتظار تفاجأنا بوجود "الريس فؤاد" وطاقم البحارة عن آخره، فحررونا من "الحديد"، وأحضروا لنا طعامًا، وأمرونا بعدم التفوه بكلمة واحدة، فكنت أحدق في وجه "الريس فؤاد" الذي جلس مطمئنًا باندهاش شديد، فحاولت أن اقترب لأهمس إليه بالسؤال، لكن عين أمين الشرطة الذي كان يقف فوق رؤوسنا بملابسه المدنية، كانت تخترق كل حركة تصدر عنّا، فاضطررت أن أصبر، رغم أن الصبر مع الحكومة طريقه أطول من الطريق إلى مدينتنا، لكن لم يكن أمامي غير الصبر حتى يمر هذا الوقت الممل، وبعد مرور أربع ساعات من الصمت، والإرهاق، والتعب، وغطيط النوم، نادى أمين الشرطة بصوت عسكري جاد: "فؤاد راشد حداد"، فنهض "الريس فؤاد" من مكانه بصعوبة شديدة، وبخطوات متباطئة، وبوجهه الذي لا تفارقه علامات الاطمئنان، اصطحبه "أمين الشرطة"، وغاب في ظلام الممر الممتد، وبعد مرور نصف ساعة، عاد أمين الشرطة ونادى على بحار آخر، وبعد مرور نصف ساعة أخرى نادى على بحار آخر، وكأن هناك ميقاتي دقيق هو من يحدد مدة التحقيق، ولكن من كان يتم استدعاؤه لا يعود إلينا مرة أخرى، فظللت منتظرًا حتى خلت الغرفة تمامًا، ولم يتبق غيري ليصيبه الدور، فجاء "أمين الشرطة" مناديًا "نور الدين سيد الحناوي"، فنظرت حولي، وابتسمت لمن جاء ينادي باسمي كاملًا بينما لا يوجد في الغرفة سوايّ، فنظر إليّ شذرًا، ثم عاد ينادي "نور الدين سيد سعيد الحناوي"، فلملمت جسدي ونهضت من مكاني قائلًا: "أنا نور الدين"، فنهرني بشدة لتأخري عليه في الردّ.

أمرني "ضابط الأمن الوطني" الذي يجلس في الظلام خلف مكتبه أمام أباجورة تبث ضوءًا خافتًا، أن أستريح على المقعد أمامه حتى ينتهي من مكالمته التليفونية، فأخذت أتجول بعيني بين أثاث المكتب الذي يشبه غرفة النوم؛ سرير حديدي، وتلفزيون يبث فيلمًا لـ" Tom and Jerry"، وسجادة صلاة مفروشة في اتجاه القِبلة، وشبشب حمام، وبيجامة، ومنشفة، حتى انتهى من مكالمته التي لم تخلُ من الشتائم، والسباب، فقام من مكانه، وتثاءب، وتمطى، وهرش في كرشه، وعاد ليجلس في مكانه، فأمسك بقلمه وأخذ يسألني عن اسمي، وسني، ومهنتي، وعنواني ثم تغيرت نبرة صوته حينما استدار بكرسيه لينظر إلى الحائط خلفه وهو يسألني:

-ليه زرت إسرائيل؟

فتساءلت مندهشًا :

-إسرائيل؟!

-أيوة إسرائيل .

- أنا مزرتهاش..هم اللي أسروني بعد معركة الفنار.

فاستدار بكرسيه فجأة حتى أصبح في مواجهي:

-إنت هتسطعبط؟

-ليه بس يا باشا؟!

- فنار إيه وبتاع إيه؟ إيه دخَّلك إسرائيل بمركب "الريس فؤاد"

فرددت ظهري إلى الخلف، وطلبت منه ارتشاف جرعة ماء من كوب على مكتبه رافق فنجان قهوة فارغًا. فأومأ برأسه بالموافقة، ثم قال بحدة :

-زمايلك كلهم قالوا إنك اللي كنت سايق المركب.

فتنفست الصعداء، وسردت على مسامعه القصة كاملة. فأخذ يسألني، ويسألني، ويعصر في ذاكرتي، حتى كدت أن أسقط من التعب، فنادى على "أمين شرطة"، وأمره، بعدما نهض من مكانه، وأخذ يفرد في سواري قميصه، ويلملم في أشيائه:

-فيشه وسيبه يمشي.

ثم وجه كلامه نحوي بلهجة حادة، بعدما انتهى من تمشيط شعره:

-لو شفتك هنا تاني هنفخك. فاهم؟

فنظرت إلى وجهه الذي تهدل منه اللحم، حتى إنه طغى على ملامحه، وحدقت في عينتيه الحمراوين قائلًا:

-فاهم يا باشا.

خرجت من مقر الأمن الوطني، ومشيت بمحاذاة كورنيش النيل متجهًا إلى مسجد "البحر" لأصلي الفجر الذي انطلق آذانه فملأ الدنيا كلها، فاليوم المقبل هو يوم على هامش الحياة، بل إن كل الأيام المقبلة أصبحت بالنسبة إليَّ لا معنى لها، سوى أنها أيام قدَّر الله لي أن أعيشها، بعد أن فقدت أملي الأخير في الحياة على الأرض كما البشر، فربما أنا بشر خُلِقت لأعيش على حافة الماء عند نهاية الدنيا، لأكون بؤرة يجتمع حولها النور الكوني الهائل لأرسله إلى قلوب الناس قبل أن يحرقها الظلام، بعد

أن انقطع الوحي عن الأرض الطيبة، فسُخرتُ لأنفض ثوب الحكايا في أعين الغافلين ليبصروا في أنفسهم الآية الكبرى.

أتممت صلاتي، ودعوت الله بأن يمنحني الرحمة لأستريح راحة أبدية لا رجعة فيها بعد أن يبث في عظامي القوة التي بها سأنفذ من رتق تلك الدنيا المجنونة، لكن جاءتني الرسالة في أعين طفل التقط دموعي، فأفلت يده من بين أصابع أبيه، وركض نحوي بشدة، وطبع على رأسي قبلة، وألقى في وجهي ابتسامة، فمسحت على شعره، وفتحت راحتيه ووضعت فيهما مسبحتي "الكهرمان" التي كنت قد ورثتها عن أبي، فعاد إلى أبيه ولوح لي قبل أن يختفي عند باب المسجد، فنهضت من مكاني، وخرجت إلى الشارع لأعبر الجسر المعدني إلى البر الغربي لأخوض رحلة العودة إلى منزلي، فتوقفت في المنتصف، ونظرت مياه النيل حيث تقبع بقايا الجسر الانكليزي (٤٥)القديم الذي استبدلوه بهذا المسخ الجديد، وأشفقت على الحديد العجوز الذي سبقني إلى عالم المهمشين.

عدت إلى البيت، فوجدت بابه مفتوحًا عن آخره، دلفت إلى الداخل، فرأيت «فادية» وزوجة «جابر»، وابنتي «سميحة» التي انتفخت بطنها

بالحمل يجلسن في الصالة، بينما كانت رائحة الحزن تدور حول رؤوسهم، فتقدموا نحوي يرحبون بي، ويحمدون الله على عودتي سالمًا، فقد أفجعهم خبر موت «صابر» الذي ترك خلفه خمسة أطفال، وأمهم،

---

(٤٥) أقدم كوبرى سكة حديد في العالم عبرت عليه القطارات فوق نهر النيل عند إمبابة بمحافظة الجيزة ليربط بين الوجهين البحري والقبلي، وفي عام ١٩٣٠ تقرر استبداله بكوبرى آخر لكن عثمان باشا محرم، وزير الأشغال قرر نقله إلى نيل دمياط، عبر الصناديل النيلية.

وبعد أن كررت السؤال عن «جابر» مرات عدة، أخبرتني «فادية» بأن خفر السواحل قد ألقوا القبض عليه، واحتجزوا مركبه، وهو الآن محجوز في "نقطة الشرطة" للعرض على النيابة. فتدخلت زوجته قائلة:

-هو قالي إنهم هيفرجوا عنه لأن مفيش قانون بيجرم تهريب السولار.

فقاطعتها بلهجة حادة:

-لكن جوزك مجرم حتى لو برأته قوانين الأرض كلها.

فأحنت رأسها على صدرها باكية. فانتفضت «سميحة» مدافعة عن أخيها:

-أخويا مش مجرم يا ابا، كنت عايزه يعمل إيه يعني يسرح البحر ويعرض نفسه للموت عشان ملاليم، ويعيّش أولاده في الوهم زي ما عيشتنا؟ كنت عايزه يعمل إيه يابا؟ فوق بقى يا با حرام عليك.

فرفعت يدي كي أصفعها على وجهها، لكني توقفت، وكظمت غيظي، واتجهت إلى غرفتي لأغلق عليَّ بابي، لكن قبل أن انتهي من عبور الصالة، سبقتني إليها "فادية"، لتحمل حفيدي "أحمد بن جابر" الذي كان مستلقيًا على سريري وسط الشموع والبخور، والأوراق الشيطانية الغريبة، فاندهشت من المشهد الصادم، وأسرعت لفتح النافذة بعد ان أحرقت النيران، والدخان أكسجين الغرفة كله، فأخبرتني «فادية» أنه خرج ليصطاد من النيل بالصنارة البوص التي صنعتها له، فأخذته "جنية" الماء إلى الأعماق السابعة، ثم ألقته على الشاطئ عاريًا تمامًا، فرأه أحد أهالي العزبة، فحمله وأحضره إلى البيت، ومن يومها وهو فاقد للوعي، لا ينطق بكلمة واحدة، ويرفض كل ما يدخل جوفه إلا السكر

المذاب في الماء، وبعد أن احتار في أمره الأطباء، نصحهم أحد الشيوخ بعمل جلسة "زار"، وإضاءة الشموع والبخور حوله دائمًا كي تخرج الروح الشريرة من جسده. فأطحت بالشموع في الأرض، وكسرت آنية البخور، وحملته بين يدي وركضت إلى خارج البيت، وأخذت أدلك له صدره، وجبهته، وأنا أصيح:

-صابتنا لعنة الحرام..صابتنا لعنة الحرام..ياااااااارب رحمتك .

وقف «جابر» أمام باب البيت بعد أن أفرج عنه، ونظر إليَّ في خجل، وسألني قبل أن أفسح له الطريق للدخول:

-أدخل يابا ولا أروح لحال سبيلي؟.

-لو الريس جابر اللي هيدخل فأهلًا وسهلًا لكن لو دخل ومعاه شيطانه هحرقه.

فارتمى في حضني باكيًا، فربتُ على ظهره، وواسيته في مصيبته، فأخبرني أن الحكومة أوقفت ترخيص المركب ووضعته على القائمة السوداء، وأنه السبب في ضياع حلم البيت كله، فشددت من أزره، وقلت له إن كل ما تكسر سيتم إصلاحه، فدفعني إلى الخلف برفق، وحدق في وجهي، فضربته على مؤخرة رأسه مازحًا:

-اللي قال إن اللي اتكسر ميتصلحش ده حمار.

فانفجر ضاحكًا، ضحكت معه بشدة، فدخل إلى البيت وقبَّل رأس أمه ويديها، لكنه صافح «سميحة» ببرود، بينما ارتمت "أمل" في حضنه تسأله عن لعبتها التي وعدها بها، لكنه سألها عن أمها فأجابته بأنها تجلس جوار أخيها المريض، فأسرع ناحية غرفته منزعجًا، ليطمئن عليه،

وبعد دقائق معدودات خرج مندفعًا ناحيتي، يترجاني، ويتوسلني أن أنقذ ابنه من الموت، أن أفعل أي شيء، أن أصلي، أن أدعو، أن أقتله من أجل أن يعيش البيت كله. فظللت صامتًا، بل عاجزًا عن الكلام، فليس في يدي أي شيء أفعله بعد أن فقدت قوتي التي بها يمكن أن أقف بها أمام الله وأرفع له أكف الضراعة، وأدعوه أن يخلصنا من تلك اللعنة. فقد سقط من يدي قنديل النور، وسلمت نفسي للعدم، فنهضت من مكاني، وانسحبت إلى غرفتي، دون أن أنبس بنت بشفة.

زارني أبي في منامي يحمل قنديله المضيء، فشمر عن ذراعيه، وأخذ ينهل من نوره ويسد ثقوب البيت، لكنه ترك ثقبًا وحيدًا فوق فراشي لم يغلقه، ثم التفت إليّ مبتسمًا، وعلق القنديل في رقبتي، وقال لي قبل أن ينسحب إلى ظلمة الماء:

-طهر حفيدك من مرضه عند ملتقى البحرين.

فهممت أن أتكلم فاستطرد قائلاً:

-احرق شيطانه بالملح الأجاج، واغسل قلبه بالعذب الفرات.

فهممت أن أتكلم مرة أخرى فقاطعني قائلًا:

- اغسله بنور القنديل يا "نور"، طهر بيتك بنور الله قبل فوات الأوان.

اختفى أبي في الجدار، وهو يردد بصوت رخيم:

-طهر بيتك بنور الله..طهر بيتك بنور الله يا «نور».

فنهضت من نومي بعد أن انقطع الصوت، متحسسًا قلبي الذي يدق بشدة، فطلبت من «فادية» كوب ماء، ولما أحضرته شربت منه جرعتين،

وسألتها عن الساعة، فأخبرتني بأنها الرابعة صباحًا، فخرجت واغتسلت، وعدت فصليت ركعتين قضاء حاجة، وانتظرت حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر، وقبل أن أخرج إلى الصلاة أيقظت جابر واصطحبته معي إلى المسجد ليصلي، ثم عدنا إلى البيت، فطلبت منه أن يلف "أحمد" في غطاء ثقيل، ويحمله إلى الخارج، فحاول أن يستفسر عن سبب ذلك لكنني قطعت عليه أسئلته بإصراري أن يفعل ذلك فورًا، قبل أن تشرق الشمس وتملأ الدنيا بأشعتها القاسية، فانصاع إلى أوامري دون مناقشة، وخرج به من الغرفة ملفوفًا في غطائه، فسميت الله، وحملته عنه، وأمرت فادية أن تحضر إناءً نحاسيًا جديدًا لم يأكل أو يشرب فيه بشر، فقرأت داخله المعوذتين، وآية الكرسي، وخواتيم البقرة، وأعطيته لـ"جابر"، وغادرنا إلى شاطئ النيل، وسط دهشة عمت البيت كله.

نزلنا إلى قارب بدائي يلمع بين سواد الليل المنجلي، وبياض النهار المقبل بقوة، كنا قد وجدناه راسيًا على الشاطئ، وكأن أحدًا قد أعده لنا خصيصًا، فجلست في مواجهة «جابر» أحمل حفيدي، وأمرته بأن يجدف بسرعة ناحية "اللسان"، حتى لحقنا بأول شعاع أرسلته الشمس إلى الأرض، فوقعنا في قلب المربع الوجودي الأعظم، الضوء، والصوت، والملح، والعذب، وبعد أن توقفنا بالقارب عند مجمع البحرين، كشفت الغطاء عن وجه حفيدي ليشهد لحظة ميلاد العالم، فملأت راحة يد اليمنى بحفنة من ماء النيل، وبراحة يدي اليسرى اقتلعت حفنة من ماء البحر، وأفرغتهما في الإناء النحاسي وكررت ذلك سبع مرات، ثم همست فيه بالدعاء" يا واهب النور والظلام، يا نور كل شيء، يا من بنوره نهتدي إلى كل شيء، ونرى كل شيء، يا منير القلوب والعقول والعيون والأبدان،

يا ميسر الخطى بالنور، وباسط السبل بالنور، وهادي عبيدك بالنور، وكاشف الغمة بالنور، يا نور لا يعلوه نور ولا يحده نور، ولا يحتويه نور، يا بديع السماوات يا جاعل الظلمات يا راحم العبرات يا مقيل العثرات يا ساتر العورات يا محيي الاموات يا منزل الآيات يا مضعف الحسنات يا ماحي السيئات، اللهم إني اسألك بِاسمك يا مصور يا مقدر يا مدبر يا مطهر يا منور يا ميسر يا مبشر يا منذر يا مقدم يا مُؤَخر، يا مجيب الدعاءُ أذهب البلاء عن عبدك، ولا تأخذه بذنوبنا، فحرره من شياطين الجن والإنس، وطهره بنورك الذي لا يستكين".

جردت حفيدي من ملابسه، وغمسته في خط الأزرق، ووضعته على القارب، وأخذت أمسح على رأسه، وصدره، وأضرب مفاصل جسده بماء الإناء، ورفعت رأسه ووضعت في فمه ثلاث قطرات، ثم جثوت على ركبتيّ، ودفعت قلبة مرات عدة، فارتعش المركب يمينًا فيسارًا، وانفجر الضوء من قلبه يملأ المكان، فسرت الدماء في عروقه، وانتفض جسده، وشهق بالحياة، وتقيأ كل ما في داخله من كتل سوداء، فكبرت، وهللت، وسجد «جابر» لله شكرًا، بينما أشار الولد إلى طائر أبيض ظل يفرد ويفرد جناحيه أمام قرص الشمس، ثم التفت إليّ قائلًا:

- كنت بحلم بيك وأنا نايم يا جدي.

فضممته إلى صدري، ومسحت على شعره مازحًا:

-إياك تحلم بيا تاني من غير ما تقولي.

فنظر إلينا «جابر» مبتسمًا، وعاد يجدف بنا وسط مفارش ورد النيل ناحية المدينة.

صرخات «سميحة» تهز جدران البيت كله. لم تكن آلام الولادة هي من تسببت في ذلك، فـ"سميحة ما تزال في أشهرها الأولى، ولكن صرخات سميحة كانت تدفعها آلام الموت. موت الجنين الذي أبى أن يولد في الظلام، فقرر أن يموت في رحمها، قبل أن يرى وجه أمه المضرج بألوان شرهة، تشبه ألوان كل النقود المكتزة في خزائن الأرض. فتحول في أحشائها إلى جثة صغيرة، لكنها كتلة من لحم بريء تصرخ هي الأخرى من وقع الذنوب التي يرتكبها البشر، لكنها صرخات تصفع الأعين، ولا تستوعبها الآذان. فالصوت إذا ارتفع أكثر مما يجب لا تستوعبه إلا الضمائر الساكنة فينا منذ الأزل. أما إذا انخفض أصبح صوتًا عاديًا، نسمعه: طرقات، همسات، همهمات، دندنات، نغمات،كلمات، نداءات، نحيب، صرخات، وزغاريد فرح، وأحلام هائمة.

في المستشفى خلص الطبيب الجنين من رحم «سميحة»، ونظف أحشائها بعد أن أوقف النزيف، ووصف لها أدوية مقوية، وتركها ورحل، بعد أن أوصانا بعدم تعرضها لأي إجهاد، أو أي ضغوط نفسية. فكآبة سقوط الأجنة قد تدفع النساء إلى الانتحار، أو قتل من تظن بأنهم من تسببوا في فشل حملها، فضحك زوجها قائلًا له:

-يا خوفي لتقتلني أنا؟!

فأجابه الطبيب بلهجة جادة:

-أنا مش بهزر يا أستاذ.

فاحتفظ بلهجته الجادة والتفت إليّ بعد أن تجاهل وجوده:

-إنت أبوها؟

-أيوة أبوها.

-بنتك محتاجة رعاية لأن اللي حصل لها ناتج عن اكتئاب حاد.

-اكتئاب؟!

-خلي بالك من بنتك يا حاج.

-حاضر يا دكتور.

دلفت إلى الغرفة فرأيت «سميحة» مستغرقة في نومها، كما لو كانت طفلتي الجميلة التي اعتادت أن تندفع نحوي بقوة وتتعلق برقبتي عند عودتي بعد غياب طويل من الفنار لتقبلني على خدي، وتلفني بذراعيها الصغيرين، بينما أشعر بقلبها يدق فرحًا، وهو يحثني على البقاء، لكن سرعان ما ينقبض، حينما يبتلع الفرحة، فتبكي بشدة، وتخاصمني حينما أفارقها، وأغادر المنزل لشهور عدة، لم أكن أعلم أن قلبها هذا الصغير سيتأرجح بين قسوة الغياب، ورحمة العودة، فتتمزق أوصالها بين الخير، والشر، وتظل حبيسة نزاع نفسي طويل كاد أن يفتك بها، فأتت تستنجد بالبيت الذي تركت فيه ضفائرها الأولى كما هي، لكننا لم نكن نشعر بها، لم أكن أعي أن النور هو من أعادها ليسد الفراغات، والثقوب، والشقوق التي حولتها إلى امرأة ترى الدنيا كلها في ورقة مال تنتظر المزيد، والمزيد.

حملت حفيدي بين يديّ وخرجت من باب البيت، ومن خلفي رجال العائلة في مشهد جنائزي حزين، قاصدين المقابر لنزرع جسده الذي لم يكتمل في التراب، لعل تنبت منه شجرة "توت أحمر" يضيء ثمرها ظلمة القلوب التي ماتت في صدور الناس قبل أن تموت أجسادهم، توقفت

لأطالع القبور المصطفة على الجانبين، والتفت خلفي لأجد أهالي المدينة وقد رافقونا. فافترشت عباءتي ووضعته عليها، ورحت أحفر قبره، حتى تصبب العرق من جسدي كله. فأخذ «جابر» المعول من يدي ليكمل الحفر، ثم حمل ابن أخته بين يديه، ووضعه داخله برفق، ثم أهلت عليه التراب، بدموع معلقة بين جفوني، لم يلحَظها إلا شخص واحد فقط. خرج من وسط الرجال، وقبض على يدي، وهمس في أذني قائلًا:

-أحسِن دفن ذنوبك يا «نور».

فعلقت نظري بين عينيه، متأملًا لحيته البيضاء، ووجهه الذي يقطر نورًا، وأومأت له برأسي، وسحبت يدي من بين يديه، وتركته لأخذ العزاء، بينما دس يديه في التراب، وأخرج جثة حفيدي، والتفت إليَّ مبتسمًا، ثم رحل ناحية البحر.

* * *

(٤)

(بؤرة نور وحيدة)

الباخرة "عايدة" تبتعد عن الفنار، بينما يقترب الشاطئ الذي غادرته منذ أربعة أشهر وتركته خلفي بخيره، وشره، بحلوه، ومره، وبناسه الذين لم أعاشرهم، ولم أعش معهم سوى أيام عدة. فأنا أنتمي إلى كوكب سقط سهوًا في قلب الماء، فعشنا عليه كما طحالب البحر التي تعلق بالصخور، بعد أن يهملها الموج، فتظل مصلوبة حتى تموت بين الشقوق، فجلست أفكر إلى أين سأذهب؟ أين سأقضي إجازتي تلك التي بها سأطل على هذا العالم ثم أعود أعيش حياتي الجديدة التي اخترتها لأتداوى من ذنوبي، كانت نفسي تميل نحو العودة إلى جزيرتنا التي هجرتها لأعبر الطريق إلى الجنة التي صنعها هؤلاء، لكن نفسي الأخرى تجذبني بشدة نحو البحث عن "كاميليا" في الإسكندرية، فمددت بصري ناحية الفنار الذي يغوص في المياه، في حين كان تمثال «نور» يقف شامخًا يرفع رأسه إلى السماء، ويشير بيده اليمنى التي حررها «راضي» من سيجار الحشيش إلى قرص الشمس المنقضي، بينما جلس كليه جواره باسطًا ذراعيه، فقررت أن أذهب إلى «نور» لأزوره في بيته لأحتمي به، من ألم الذكرى، وغواية الذنب.

رست «عايدة» على رصيف الميناء، فعبرت الجسر إلى الشاطئ الممتد، وبينما كنت أحمل حقيبتي للاتجاه نحو بوابة الخروج، وقعت عيني على بحَّار يقف على سقالة الكترونية وسط المصابيح المضيئة، ويقوم بأعمال الطلاء لإحدى سفن "الكارجو"، فتذكرت البحار المسكين الذي رماه حلمه للعمل على "كابي مايور"، فكم هي صغيرة أحلامنا أيها البحار الأحمق، لكن أن ينتهي حلمك قبل أن يبدأ على فراش "كاميليا" في باريس، فهذا قمة الحمق، لكن مع "كاميليا" قد تبدأ حقيقة لم ترها من قبل، فتشعر أنك إنسان آخر غير الذي ولد داخلك منذ عشرات السنين، فتتجلى لك كل ذنوبك وكأنك من كتبتها بيديك في صحيفتك، لتتمنى لنفسك أن تكون ترابًا، فحينما أسندتْ ظهرها إلى السرير، وأشعلت سيجارتها، نظرت إلى جسدي النحيل ضاحكة، ثم سألتني عن اسمي، فأجبتها بلهجة واثقة:

-عادل ..اسمي عادل.

فزادت من ضحكاتها، وهي تقوم بتقليد أداء صوتي بطريقة مستفزة، ثم عادت تسألني عن عملي، فصمت قليلًا، فلكزتني بكوعها في صدري العاري، وكررت سؤالها عن عملي، فأجبتها بتحدٍ:

-بشتغل بحار.

فشردت للحظات، وتغيَّر وجهها، والتفتت إليَّ، وسألتني بلهجة جادة بعد أن أطفأت سيجارتها في المنفضة جوارها، عن نوع سفينتي، واسمها، وعن الميناء التي ترسي فيه، وعن موعد الإبحار، وجنسية "الباش ريس"، و"كبير الضباط"، وعمرهما، وأخلاقهما، فتوقفت عن الإجابة، وسألتها

عن سبب كل تلك الأسئلة. فأشعلت سيجارة أخرى، وراحت تسرد على مسامعي قصة زوجها الوسيم الذي تعرف عليها عندما كانت تعمل في إحدى الصيدليات في الإسكندرية، لتعين أبيها الذي يعمل "نباشًا" للقمامة على متطلبات الحياة، وسد جوع أخواتها الصغار، فأغراها بماله الذي أغدق عليها به، وبالسفر إلى عالم الجن والملائكة، فتزوجها، وسافرت معه إلى إحدى القرى البعيدة في ريف فرنسا، لكن بعد شهور قليلة اكتشفت بأنها عضوة في إحدى شبكات الدعارة، والمخدرات، حيث كان يقوم بتصويرها خلال ممارسته الجنس معها، حتى إنها أصبحت الفتاة الأشهر في عالم الدعارة دون أن تعلم ذلك، فطلقها، وأجبرها على ممارسة الجنس بجميع أنواعه مع زبائنه المرضى الذين تهافتوا عليها، مقابل ثلاث وجبات طعام وكأسيّ نبيذ، ونشقة من "مسك الروم"، وغرفة للإقامة لا تراها الشمس، ولا القمر، والنجوم، ولا الجرذان ولا القطط، فقط الكلاب هي من اعتادت التردد عليها ليل نهار، فحاولتْ الهرب من جحيمه، أكثر من مرة، لكنه قيدها بالسلاسل، ثم ربطها في طوقٍ حديدي لفه حول رقبتها، وتركها لقمة سائغة لزبائن الجنس السادي، الذين كانوا يدفعون أكثر، وأكثر كلما منحهم جسدي ما يسد جوعهم من دماء، وتأوهات، ودفعات، ودفقات الألم الجبري، فقررت أن تقتله، بل تأكله بأسنانها قطعة قطعة، وحينما حانت اللحظة وأعطاها ظهره لم تتردد لحظة واحدة، فخنقته بقيودها، حتى فارق الحياة، بعدما حولها القهر إلى وحش اشتاق إلى الانتقام كثيرًا، فهربت من المنزل لكنها وقعت في يد فلاح فرنسي، فأخذها إلى بيته وسط مزارع الكروم، فحطم قيدها، وقدم لها العلاج الذي به اندملت جروحها، ثم راودها عن نفسها برفق، فمارس عليها الجنس حتى زهدها، فأعطاها مبلغًا من المال، وتركها

تغادر إلى باريس لتختبئ وسط أزقتها الضيقة، لتبدأ حياة جديدة، أو تعود من حيث أتت، أو تموت وتدفن في مستودعات القمامة، لكن العودة بالنسبة إليها تعني الموت، فقد يقتلها أبوها الذي تخلت عنه وتركته يواجه قطار الجوع وحده، فلم تجد أمامها إلا جسدها لتأكل على ظهره وتشرب، وتعيش بعد أن أغلقت في وجهها كل الأبواب، لعدم وجود أوراق، أو جواز سفر يثبت هويتها، فعاشت ليال طوال في الشوارع، وأمام الملاهي الليلية تصطاد زبائنها، حتى أصبح الشارع حليفها، تعرف طبائعه، وأسراره التي لا يعلمها أحد، فاحترفت الهروب من وحوش الطريق، ودهاء الشرطة، حتى تحولت من "كاميليا" الساذجة إلى "صوفيا" حامية المومسات، وسيدة المتعة في باريس بلا منازع، فجمعت حولها بائعي الهوى من المغاربة والإفريقيات، وأقامت سوقًا سوداء تضرب به قوانين الجنس داخل فتارين "السكس شوب" المدللة، والتي تقصر المتعة على الفرنسيات فقط، لكن "كاميليا" استطاعت أن تعصف بكل القوانين التي تجعل لحلاوة تلك الحياة غصة مرة في أفواه طالبيها، فما أجمل الخطايا حينما يرتكبها أصحابها سرًا.

سحبت نفسًا من سيجارتها بعد أن نفضت عنها عمودًا من الرماد، ثم أخرجته بتلذذ، واقتربت مني ببطء، وارتمت في أحضاني، وقبلتني قبلة فرنسية اختلطت معها الأنفاس، باللعاب، ثم جلست على طرف السرير، وقالت وهي تخلل أصابعها بين شعر صدري الكثيف:

- أنا عايزه أرجع مصر.

فأقمت ظهري إلى الأمام، وتهلل وجهي لقرارها المفاجئ، لكن ارتسمت ملامح أخرى على وجهي فجأة بعد أن تذكرت المصير الذي ينتظرها فسألتها مندهشًا:

- عايزه ترجعي مصر ليه؟

- هأسس فيها شبكة تنشر مفاهيم جديدة عن الجسد.

-مش خايفة من أبوكِ؟!

فأردفت بلهجة ساخرة:

-فلوسي أقوى من أبويا وانتقامه.

-لكن هترجعي إزاي وأنت مفيش معاك جواز سفر؟!.

فكتمت أنفاسها ثم انفجرت قائلة :

-هرجع معاك.

-معايا؟!.إزاي؟

-ههرب في مركبك.

-يا نهار أسود؟!

فضمت سبابتها على الوسطى ووضعتهما على شفتيّ قائلة:

- كل اللي عايزاه منك مفتاح كابينتك، ورقمها.

- وبعدين؟

-وبعدين دي عليّ أنا.

- فهميني هتعملي أيه يعني؟

- الفلوس والجسد والسلطة هم اللي بيعملوا كل حاجة.

فاستسلمت لرغبتها، أو لدهائها اللذيذ، عندما عادت تقبّلني بشراهة، حتى أصبحت كقطعة صلصال ساخنة، تنتظر من يشكلها كيفما شاء، ثم يصب عليها الماء لتبرد وتتجمد، فتعود إلى طبيعتها الأولى، حينما يمتزج الماء بالماء، فترتعش، وتنتفض، وتتفتت، وتنتظر لحظة أخرى لتعيد الكرّة.

في قطار "جي تي في" السريع المتجه إلى "مارسيليا" جلسنا نحتسي فنجانين من القهوة الفرنسية الدسمة، بينما كانت تقوم بإجراء اتصالات عدة عبر هاتفها المحمول مع صديق لها، عن كيفية تحويل أموالها التي تحتفظ بها في حسابه إلى مصر، كما أجرت اتصالًا بمعارفها الكبار لتسهيل دخولها إلى الميناء، ثم التفتت إليّ قائلة:

-كل شيء ممكن أخلصه بالتليفون.

فتطلعت في وجهها مبتسمًا، بينما كان السؤال يقف في حلقي فقطعت عليّ الطريق قائلة:

-على فكرة كان ممكن أعمل باسبور بصباع رجلي الصغير لكن ..؟

-لكن إيه؟!

فانفجرت ضاحكة، وقذفت بفنجان القهوة من شباك القطار:

-لكن أنا بعشق المغامرة.

فحدقت في وجهها للحظات، وعدت إلى ابتسامتي، بينما لم أكن مندهشًا لما تقول، أو تتباهى به أمامي، لتحاول أن تجذب ثقتي في نجاح خطتها دون أن تسبب لي ضررًا، فقد درَّبت نفسي جيدًا أن أحبس انبهاري، منذ أن خرجت من مدائن العزلة وقررت أن أعبر الطريق الطويل كي أقتحم عالم الألوان السبعة المبهجة، وإذا كانت "كاميليا" تعشق المغامرة فأنا عاشق للتفرج، والابتسام في صمت.

كنا قد وصلنا إلى باب الميناء، بعد أن غادرنا محطة القطار، فودعتني بقُبلة خفيفة على خدي اليمين، وطلبت مني أن أذهب إلى سفينتي بينما هي ستقوم بشراء بعض المتعلقات الشخصية، فتمشيت ببطء على الرصيف، بينما كان قلبي يزداد اضطرابًا كلما اقتربت من مرسى "كابي مايور"، فاستقبلني "سمير المالح" بترحاب هزلي ساخر، وأمرني أن أستلم ورديتي فورًا لإنهاء شحن الحاويات المتبقية فوق سطح السفينة، فساورني شعور مجنون يحرضني على ضربه ضربًا شديدًا، وركله في الماء، لكن شيئًا ما كان يمنعني، فصعدت إلى كبينتي لخلع ملابسي، وارتداء زي العمل، فتذكرت أن المفتاح مع "كاميليا"، فوقفت في الممر محتارًا، فحاولت أن أدفع الباب لعله يرأف بي، ويفسح أمامي الطريق للدخول، لكنني تفاجأت بـ"كاميليا" تفتحه لي من الداخل، فتسمرت في مكاني فاغرًا فاهي، فوقفت منبهرًا تلك المرة لا متفرجًا حتى أنني حسبتها شيطانة، لكنها الإنسية التي منحتني متعتي الأولى من نساء الأرض، فالتهمت وجهي بنظرة دلال، وانتصار، وتحدٍ، ثم قالت وهي تحرك جسدها كراقصة محترفة :

-مش قلت لك بعشق المغامرة؟.

شقت "كابي مايور" طريق العودة إلى ميناء "جنوة"، بعد أن أمرنا "جوميل" بتفتيش الباخرة خوفًا من أن يكون قد تسلل إليها مهاجر غير شرعي للهروب داخلها إلى إيطاليا، بينما تمّ "سمير المالح" على "الكرو ليست" الخاص بطاقم الباخرة، في حين أفلتت "كاميليا" من كل تلك الاحتياطات، ورافقتني في كابينتي الخاصة، تنتظر قدومي من الوردية لنقضي ليلنا، أو نهارنا في صحبة زجاجة نبيذ، وكأنها صارت حبيبة، أو زوجة افتراضية، فكنت أحتفظ بنصف طعامي، وشرابي، وأعود به إليها كعصفور عاشق احتفظ بحبيبته في عشه، ليخفيها عن أعين الطيور الجارحة، حتى أنني كنت أشعر مع كل مرة أنال منها متعتي بقوة جهنمية تمنحني إصرارًا كبيرًا على مواصلة الحلم بطريقتي، لذلك بدأت أتمرد على "سمير المالح" فقررت أن أنقل إليه الأخبار التي تخدمني أنا، أما الأخبار الهائلة فكنت ألقيها في البحر، فلم يمكنه دهائه من كشف سري العظيم الذي أخفيه في كبينتي، لكنه كان دائم الاستغراب من رائحة جسدي التي تفوح منه عطرًا نسائيًا ساحرًا، بينما لم أعبأ بتكهناته، ولا بكلماته الساخرة التي كان يحاصرني بها رغم محاولاته المستميتة لاقتحام كبينتي أكثر من مرة.

أمرني "جوميل" أن أصعد إلى قمرة القيادة لإعادة طلائها، مع مكتب القبطان على أن أفرغ من عملي قبل عودته من الراحة التي ستنتهي بعد ساعتين، فأنصعت لأوامره وبدأت في ممارسة عملي بمنتهى السرعة حتى انتهيت قبل المدة المحددة بساعة كاملة، فهبطتُ كي أمارس عملي في ترتيب العنابر في بطن المركب، فتذكرت بأنني قد نسيت بعض أدوات الطلاء في قمرة القيادة، فصعدت مرة أخرى لإحضارها، لكني تفاجأت

بأن هناك من لطخ كل ما فعلته باللون الأحمر. فأيقنت بأنه "جوميل" من فعل ذلك كي يتخلص من وجودي الذي أصبح أقوى بكثير من منصبه. فدخل القبطان النرويجي الذي لم يسبق لي أن رأيته أبدًا، ووقف مندهشًا، ورمقني بنظرة ثاقبة، وهز رأسه متحسرًا، ثم خرج دون أن يوجه إليّ كلمة واحدة. فاندفعت إلى الخارج لأبحث عن "جوميل"، لكننا التقينا على الدّرج المتجه إلى مخزن الطعام، فلم أشعر بنفسي إلى بعد أن سددت له لكمة قوية جعلت جسده يتدحرج إلى أسفل، ثم انبطحت فوقه، وأخذت أضرب رأسه في الأرض الحديدية، وأسبه بأمه، وأبيه وسط ذهول البحارة الذين تجمعوا على صرخاته، وتأوهاته، وتوسله لي بألا أقتله .

صعدت إلى كبينتي بعد أن أصدر القبطان قرارًا بإنهاء خدماتي، وترحيلي إلى مصر فور وصولنا إلى ميناء "جنوة". فتفاجأت بأن "كاميليا" قد غادرتها بعد أن تركت لي خطابًا قصيرًا على فراشي كتبَتْ فيه:

(حبيبي عادل...

شكرًا على استضافتك الرائعة، ومساعدتي على خوض طريق العودة، لكن عشاق المغامرة يبحثون دائمًا عن الأقوياء.

الوداع يا صديقي اللذيذ،

صوفايا..).

طويت الورقة، وألقيتها على الأرض، ودستها بحذائي، ورحت أحدق في وجهي المتكسر مع تعاريج مرآة خزانة الملابس، وأخذت أضحك بهستيريا كلما حركت رأسي لتتبدل الأشكال المنبثقة من وجهي الضئيل، لكني

توقفت وانخرطت في بكاء شديد بعد أن تسببت ذنوبي في ضياع حلمي الكبير، فبت بلا حلم، وبلا روح، وبلا وجه، فخلعت ملابسي، ودخلت إلى الحمام، وصببت على رأسي منظف المرحاض، ورحت أغسل جسدي كله بالماء الساخن، وأنزع عني عطر "كاميليا"، حتى احمرَّ جلدي كله، واشتعلت فيه نيران الندم، بل نيران الانتقام، فمرتكبو الحماقات لا يندمون، بل تظل عقولهم كوعاء ينتظر من يتبول داخله ثم يرحل.

تحركت بي سيارة الشرطة من ميناء "جنوة" متجهة إلى مطار" مالبينسا" في ميلانو لترحيلي إلى مصر، فالتفت إلى "كابي مايور" من الزجاج الخلفي المبطن بالأسلاك المعدنية، كي ألقي نظرتي الأخيرة على حلمي الضخم بعد أن تسرب كالماء من بين أصابعي، في لحظة تمرد غرسها داخلي شيطان ماكر، لكنني أيقنت بأنني مجرد دمية رائعة، ترقص ليل نهار، ويصفق لها الصغار لينسوا بها حوائجهم التافهة، عندما وقعت عيني على وجه "كاميليا" داخل كابينة "سمير المالح، وهي تراقب سيارة الشرطة من خلف النافذة الأسطوانية.

كنت قد وصلت إلى موقف السيارات الأجرة في السويس، فوقفت عند مفترق الطرق أقرأ اللوحات الزرقاء المعلقة فوق المظلة الجديدية، فقلبت نظري بين لوحة تحمل الاتجاه إلى الإسكندرية حيث تتنفس "كاميليا"، وأخرى إلى كفر الشيخ حيث ينتصب كوخنا القديم، وأخرى إلى بورسعيد حيث الطريق إلى «نور»، وقررت أن أترك نفسي هي التي تختار، فتلك هي اللحظات التي يجب أن تسقطها عن إرادتك، كي تصل إلى ما تريده دون تردد، فعندما تقف حائرًا بين مفترق الطرق، فدع النفس تختار لك، وعش هائمًا في جسدك، مجردًا من الحواس كلها، وثق

أن كل ما تختاره كان قد اختير لك من قبل، ففتى موسى الذي يسكن داخلي دائمًا ما يعتذر عن أفعاله الخاطئة التي يعولها دائمًا على الشيطان، ونسي أن نفسي هي التي تختار، أغمضت عيني لبرهة، ومشيت خطوات ناحية السيارات المتراكمة في الظل، ثم فتحتهما فإذا بي أمام بائع الجرائد الذي نشر صورة مطموسة لفتاة تتظاهر عارية في شوارع الاسكندرية كانت قد تصدرت الصفحة الأولى لجريدة حكومية، فابتسمت، بل انفجرت ضحكًا، وتذكرت "سمير المالح" القوي الذي فاز بـ"كاميليا" حتى أصبح أضعف من أنثى السنجاب، بعد أن أخذت منه ما تريده، فـ"كاميليا" حتمًا أخذت منه ما تريده بعد أن أفرغ قوته كلها بين ساقيها، ثم ألقته في أول صندوق قمامة، بعد أن تحول إلى ذكر مضحك، هكذا هي تعيش على ما يريده الرجال منها، فتأخذ هي منهم كل شيء لتعتلي عرش تلك الدنيا.

لم يكن الطريق إلى بيت «نور» طويلًا، بل ذكرياتي هي التي أخذتني إلى دنيا أشبه بنصف شمس صفراء، ونصف قمر مظلم، وشهاب أخطأ هدفه، فظللت أجر خلفي كرة كبيرة من الصوف حتى وصلت عند الظهر إلى حيث ينتهي النهر، فنظرت إلى مراكب الصيد الراسية بنظام فطري عجيب، وإلى الأطفال الذين جلسوا مصطفين على شاطئ المياه، وإلى ملامحهم الواحدة التي تشبه حلقة كبيرة انفرجت في مياه راكدة خلفها حجر ألقاه رجل شارد في همومه، ورفعت رأسي إلى سماء "تموز" الصافية منتشيًا، بل متهيبًا اللحظة التي ستجتمع فيها كل النقاط المتفرقة في جسد واحد، وكأنني سأرى أوزريس كاملًا في ذلك المكان بعد أن مزقه الأشرار، فاقتربت من الأطفال لأسألهم عن بيت «نور»، لكنهم كانوا قد رحلوا جميعهم إلا طفلاً واحدًا جلس يصطاد السمك بصنارته البوص، فوقفت جواره وسألته عن «نور» فالتفت نحوي، وهز رأسه

متعضًا ولم يجب، فأعدت عليه السؤال لكنه لم يعاود الالتفات نحوي، ولم يجب، فجلست جواره فأجاب قائلًا:

- علمني جدي «نور» إني متكلمش مع أي إنسان لا يحترم وجودي.

فنهضت واقفًا من مكاني، وألقيت عليه السلام، فرد التحية كاملة، ثم عاد لصيده، فسألته:

-"نور" جدك؟

فسألني قبل أن أجيبه:

-أنت مين؟

-أنا كنت زميله في الفنار.

- اسمك إيه؟

-عادل.. اسمي عادل .

-وأنا أحمد جابر نور الدين الحناوي.

-"نور" جدك؟

فحدج في وجهي، وتفحص هيئتي متجاهلًا الإجابة على سؤالي:

- مش باين عليك إنك تعرف "جدي".

ولم ينتظر كي أقسم له برأس جده أنني أعرفه، فقام من مكانه وصنع لي صنارًا من البوص، وعلق فيه الطعم، وطلب مني أن أجلس إلى جواره وأصطاد معه، حتى يحين الغروب، وبعدها يصطحبه إلى البيت، ففعلت ما أراد وأنا أفكر كيف يصنع النور كل ذلك عندما ينعكس في المرايا الصغيرة؟ كيف يعتلي النور كروموسومات الحياة الموجودة فينا فيملأ كل شقوق الجسد، لنصبح نسخًا جديدة من الخير والشر؟، أخذ الصبي

يسرد على مسامعي قصة "موسى". و"الخضر". لكنه كان ناقمًا على فتى موسى الذي أضاع "الحوت" وسمح للشيطان أن ينسيه ذلك الحدث العظيم الذي قدره الله. فكنت أنظر إليه بشغف لألتقط منه تلك الملامح التي ألفتها، لكن اندماجه وإخلاصه الشديد في سرد القصة العظيمة جعلاه ينسى صنارته في الماء حتى بدأت طقوس الغروب تجثم على وجه العالم الرحب، فوضع راحته الصغيرة فوق عينيه ليحجب الأشعة البرتقالية التي تقترب من عناق الماء، فانتفض حينما تذكر صنارته التي جذب خيطها بشدة فقفزت من طرفه سمكة عالقة ثم سربت إلى الماء، فنظر إليّ بحنق، وحمل مقطفه على ظهره، وغادر المكان، دون أن يهتم بوجودي من عدمه، فمشيت خلفه متهيبًا لحظة لقاء "نور"، الذي سيسألني عن «بحّار» الذي مات، وعن الفنار الذي غفل النور عنه ليلة كاملة، وعن الجزيرة التي غزتها تماثيل «راضي» فأخذ يدخل من شارع، ويخرج من شارع، وينعطف إلى زقاق، ويستقيم في زقاق آخر، وكأنه أراد أن يأخذني من طريق مبهم، كي أتوه عن البيت إذا حاولت العودة إليه مرة أخرى، حتى توقف بي أمام بيت قديم، أفرغ الهواء ما بين حجارته، فبدا هيكله كمستطيلات قرمزية بارزة، أما بابه الخشبي فما زال يحمل بصمات سوداء لمن رحلوا منه، ومن عادوا إليه، فتفحص وجهي طويلًا وكأنه يبحث بين ملامحي عن شيء ما ، ثم أشار إلى مركب كبير مرسوم بالطبشور الأبيض يعتليه بحار استبدل يديه بجناحين ملأ بهما الجدار، وقال لي بلهجة الواثق من نفسه:

- ده جدي «نور» لو فعلًا تعرفه ممكن تكلمه وهيسمعك.

فوقفت مذهولًا مما قاله، ولم أفكر، لم أمنح نفسي الفرصة لأي تفكير قد يحول تلك الصدمة الكبيرة إلى حكمة، أو درس مستفاد يصفعني به هذا الصبي، فأنا المذنب، وأنا التائب، وأنا الناسك، وأنا الفاسق، وأنا الطيب، وأنا الشرير الذي سئم الحكم، والمواعظ، والدروس المستفادة

التي يمليها عليه كل هؤلاء، فلن أسمح لأي إنسان بعد تلك اللحظة أن يمارس عليَّ تلك التعاويذ ليصبح هو سيدي المُطاع، فقد جعلت من البحر سيدًا، فأغرقني، وجعلت من الألوان سيدًا، فأعمتني، وجعلت من الطريق سيدًا فدهسني، وجعلت من "كاميليا" سيدًا، فخدعتني، نعم كفرت بكم جميعًا أيها السادة العظام، كفرت بكم جميعًا وآمنت فقط بالنور، وبالنور فقط، فالنور هو السيد، الذي به نهتدي إلى أرواحنا الطيبة، لنصل إلى الحقيقة التي قد فقدناها في زحمة المتاهات، فالنور كما الموت لا يكذب أبدًا، ولا يخدع أبدًا، ولا يغيب أبدًا، ولا ينتهي أبدًا، بل يُحيي داخلنا بؤرًا ربانية تجعل من أبداننا كتلًا تسبح في الفضاء، وتسير بحسبان إلى نهاية العالم، أفقت من صدمتي، فنظرت يمينًا، ويسارًا لأستوعب المكان المضرج بظلمة خجلى، وهممت أن أنادي على الصبي ليأخذني إلى «نور» لكنه كان قد دخل إلى البيت، وأغلق عليه بابه، بينما انتشرت همهمات مجهولة عن "الريس جابر" الذي أبحر ذات يوم لالتقاط الرزق برفقة أبيه ولم يعدا، فاقتربت من المركب الطبشور، وتحسست خطوطه البيضاء التي لمعت في الظلام، في حين اندفع شعاع من النور، خرج منبثقًا من ثقب وحيد، توسط المنزل القديم، متجهًا إلى البحر، بينما حلق طائر فرعوني يغرد فوق بيوت المدينة، فافترشت الأرض، وقررت أن أقيم جوار الجدار منتظرًا عودته.

– تمّت –

محمد سامي البوهي

دمياط الجديدة: ٢٨ / ٨ / ٢٠١٤

* * *

شكر وتقدير

أتقدم بوافر الشكر والتقدير لكل من ساعدني على إخراج هذا العمل، وأذكر منهم زوجتي العزيزة، والبروفسور الفرنسي باتريس بوميه، والمخرج د.علي الغزولي، والمخرج محسن صبري، ومأمور الفنار نور الدين مختار أحمد، والأصدقاء إيمان عزمي، محمد سليم، أحمد خليل، محمد بربر، التشكيلي ناصر طرابية، أشرف صالح، حسن، سيد الطوبجي، الريس فؤاد حداد، جمعية الصيادين في عزبة البرج، ومركز الدراسات البحرية في الإسكندرية، وجميع من قابلتهم من الصيادين، والأطفال، والنساء خلال رحلاتي الكشفية إلى جزيرة ابن سلام في المنزلة، وستجار في البرلس، وعزبة البرج، وبلطيم، والحماد، وقرية الصيادين في المكس.

عن الكاتب:

محمد سامي البوهي

روائي وصحافي مصري

الإصدارات:

-لوزات الجليد/ مجموعة قصصية/ مركز الحضارة العربية ٢٠٠٦

-رائحة الخشب/مجموعة قصصية/دار شمس ٢٠٠٨

-أوطان بلون الفراولة / رواية/ دار العين /٢٠٠٩

-بلوتوث/ مجموعة قصصية/ دار أكتب/ ٢٠١٠

-سكترما/ رواية /دار أكتب/ ٢٠١١

-الثورة ٢٥٥٢/ ساخر/ دار أكتب/ ٢٠١١

-الرئيس لا يأكلها تفاحًا / ساخر/ طنطا بوك هاوس/ ٢٠١٢

-الأسماك تضيء أيضًا / رواية/ دار (نون) / ٢٠١٤

التواصل:

blkbohy@hotmail.com



Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

الأسماك تضيء أيضًا

لم أعلق آمالي يومًا إلا على سطوة النور، فالنور إذا رافق البحر انعدم الصيد و نضب الرزق، و اختفى الخبز، ونُكست القلاع لكن في البيت يزيد الدفء وتنفلق الحكايات من بين شقوقه، إما إذا غاب النور وعمّ الظلام يصبح الصيد عيدًا يكثر معه الرزق، وتشد القلاع، وتتبارى المجاديف حتى تعود محملة بالخير، فرزقي معلق دائمًا بين السماء و الماء، ولا دخل لي بما يدور على الأرض، ولا بأهلها، و لن يختفي البؤساء من الأرض أبدًا حتى لو قامت كل يوم ثورة.. فالثورة لا تحول ال
إلى جنة، ولا تحول الناس إلى ملائكة، بل تخلق
للبسطاء، وتخلق مع الأمل طغاة جدد، يأكلو
شيء، ويتركون للناس الفتات، حتى يموت الزرع
النبع ويتساقط الناس جوعًا، فتقوم ثورة أخرى
طغاة آخرون أكثر شبابًا و عنفوانًا، فالثورة
النهاية الرائعة التي يجب أن نصفق لها في ك

الغلاف تصميم ورسوم عمرو الحو


ISBN 9789776436909

